أين الكموني ؟

رواية

د . إيهاب سلام



الفصل الأول

ركب القطار من القاهرة إلى أسوان ، نُقل إلى مستشفى النيـــل الحكومي بأسوان ، بعد أن أمضى زهاء عشرين سنة في مستشـفى حكومي آخر في العاصمة . لم يكن مغروراً ، إنما كان متبــاعداً ، وظن زملاؤه أنه مترفع عنهم ، فدسوا له ، لم يقبلــوا منــه هــذا الترفع ، ودسوا له لدى رؤسائه بصفات ليست فيه ، مثل معاملــة المرضى بلا رحمة ، ومعاملة الممرضات بقسوة ، وعدم التعــاون مع الزملاء ، غير أن الرؤساء لم يكونوا يروا فيه ذلك ، كان أدبــه الجم ، ووقوفه في حضرتهم باحترام ، وسماعه للأوامر ، يشككهم فيما يدسون له ، وهو فوق ذلك طبيب نابه ذكي ، يدرس بصـــبر وجلد ، غير أن تباعده عن رؤسائه أوغر صدرهم ضده ، وشـــج شقة الخلاف بينه وبينهم .

استغرب عادل نصرت الكموني أن يكون الانعزال عـــن شـــر الناس اصبح صفة مذمومة في الفرد ، ورغم ذلك لم يهتم ، وهاهو تم نقله مدير المستشفى الحكومي بأسوان ، فهذه ترقية وعليـــه أن يتجرد من طبع الانعزال . واستقبله الحر اللافح الـــذي لا يطــاق صيفاً ، وسوف يستقبله البرد الشديد في الشتاء ، ولن يكون هنــاك فاصل بين الربيع والصيف ، أو فاصل بين الخريـــف والشـــتاء .

وعليه أن يتحمل الأمر مادام كـــان منعــزلاً ، لا بتقــرب إلـــى الرؤساء .

استعرض عادل نصرت الكموني أسماء الأطباء والطبيبـــات ، استلفته اسم طبيب : نصير نصرت الكموني . ضحك .. أيكـــون أخي ؟ .. وكيف لا يكون أخاه ، إنه لم ير أباه ، فقد بذر بذرته في أمه واختفى ، ثم عاد إليها وبذر بذرة أخي أحمد نصرت الكمونـــي واختفى . وفي المرة الثالثة لما عاد أنجب سعاد نصرت الكمونـــي ثم اختفى إلى الأبد كأنه لم يعد يطيق هذه المرأة الولود كلما التقـــى بها أنجبت . ولعله تزوج في مكان آخر وأنجب نصـــير نصـــرت الكموني .

استدعاه ليراه ، شاهد عجباً . شاهد ملامحه وهو صغير ماثلـــة أمامه لكن على وجه أسمر . إنه شاب في الثلاثين مـــن العمـــر ، وهو يدنو من الخمسين . سأله : اسمك يا دكتور نصرت نصـــير الكموني ؟ ..

قال بأدب : نعم . سأل الدكتور عادل بفضول : هل نحن أخوان ولكن الأم مختلفة ؟ .. أنا اسمي عادل نصرت الكموني ؟ ..قـال بتواضع : لا أعرف . ما اسمك الرابع .

قال عادل : اسمي عادل نصرت أمين الكموني .

قال : إذن فالوالد واحد لأن اســـمي نصـــير نصـــرت أميـــن الكموني . سأل عادل : هل والدك على قيـــد الحيـــاة ؟ .. أجـــاب نصير : وهو يشد مقعدا ليجلس عليه : لا أعرف .. ربما .

سأل عادل بفضول : ماذا كان يعمل ؟ ..

قال نصير : الحقيقة . قالت أمي إنه كان يعمل مندوبـــا لبيـــع المواد الاستهلاكية .

سأل عادل : وأين هو الآن ؟ ..

قال : لا أعرف .. اختفى بعد أن أنجبت أمي أختي زينب .

قال عادل : ربما يكون هو أبي .. تزوج أمي منذ أكـــثر مـــن خمسين سنة . ولما أنجب سعاد أختي اختفى . لي أخ آخر اســـمه احمد .. يعمل في الصحافة . والأخت تعمل في أحد المصـــارف . وماذا تعمل أختك ؟ ..

قال نصرت : تعمل مدرسة .. في مدرسة أسوان الثانوية .

سأل عادل : وهل أنتم من أسوان ؟ ..

قال نصرت : نعم .. ألا تراني أسمر اللون .. وأبي كان أبيض اللون ..

قال عادل ، وهو يهز رأسه : نعم .. قالت لي أمي أنـــه كـــان أبيض اللون .. طويل القامة .. عريض المنكبين .. شـــاربه كثـــا .ولا لحية له .

قال نصرت : إنها أوصاف أبي بالفعل .

قال عادل : إذن أنت اكتسبت سمرة أمك .. هل هي أسوانية ؟ .

قال نصرت : نعم .. ولم تغادر أسوان أبداً .. تزوجها .. وكان يأتي إليها من حين لآخر .. ثم تركها بعد أن أنجبت أختي زينب .

تساءل نصرت بعد ذلك : هل له في كل محافظة أولاد وبنات ؟ ..

قال عادل : بعد أن اكتشفت أنك أخي .. لا استبعد أن يكون لي أو لنا في كل محافظة أخوة وأخوات . ولعل عمله كمندوب مبيعات سمح له أن يتزوج في كل بلد ليجد المرأة التي تروقه وإذا ما أنجبت زهدها . أليس هذا هو النسق الذي تحقق معنا ومعكم ؟ ..

سأل عادل : وفيم تخصصت يا دكتور نصير ؟ ..

قال : تخصصت في أمراض باطنة .. أعتقد أن سيادتك تخصص أمراض كلى ..

قال عادل : نعم .. تخصصت فيها لما ألم بأمي مرض في الكلى . ولما أحتار الأطباء فيه ، عالجوها طويلاً ، حتى شفيت ، لكن وجدت أنها عضو هام في الجسم يجب التفرغ لدراسته ، وتعمقت في دراسته حتى حصلت على الدكتوراه .

قال نصير : لقد فرغت من الدبلومين العـــاليين فـــي أمـــراض الباطنة . وعلى وشك أن أسجل للدكتوراه لكن المعوق الوحيد هـــو التفرغ فالبعد بين القاهرة وأسوان أو بين أسيوط وأســـوان يجعـــل الأمر مستحيلاً .

قال عادل : لا تخش شيئاً . أنا معك .. ومع كل من يتعمق فـــي دراسة الطب . إذ أن التعمق في دراسة العـــلاج والـــدواء مفيـــد للإنسانية جمعاء .. وربما تكون على يدنا نحن عائلـــة الكمونـــي نهضة علمية بإذن الله .

قال نصير : بإذن الله .

الفصل الثاني

بدافع الفضول فقط قبل دعوة نصير نصرت الكموني . يريد أن يقارن بين ذوق الكموني في اختيار أمه وفي اختيار أم نصير . وعده نصير أن يأكل خضاراً وأرزاً ولحما أسوانياً بدلاً من أن يأكل من السوق ، وذلك لأنه – كما يبدو – قرف من أكل الفندق الذي ينزل فيه ، وهو سكن حكومي للمستشفى للعزاب فقط والوافدين إلى أسوان فقط . كان يريد أن يتعرف على الزوجة الثانية لأبيه الذي لم يره أو على الأقل لا يعي صورته . فقد ترك أمه وهو في الثالثة من عمره . كيف لطفل في الثالثة من العمر أن يذكر صورة أو صوت أو هيئة أبيه الذي تركه ؟ ..

كانت المرأة مليحة ، تلك التي استقبلته بتواضع ، فعرف أن ذوق أبيه لم يكن ركيكاً . قدمت إليه زينب أخت نصير ، كما قدمت له أختاً لهما من زوج ثان . إذن فهي طلبت التطليق منه ، وتزوجت . وأخبرته المرأة أنه بعد أن غاب نصرت الكموني – زوجها الأول – استمر الحال على ذلك زهاء أكثر من سبع سنوات ، وتقدم لها تاجر يعرف حالتها ، عطف عليها قبل طلاقها ، واستمر يعينها في العدة ، وصرف على الولدين حتى شبا وتخرج نصير من كلية الطب ، وتخرجت زينب من كلية الآداب ، وهاهي عزيزة تتخرج من كلية الحقوق ، تبدو في الثانية والعشرين من

عمرها ، اكتسبت سمرة أمها مثلما اكتسبها نصير وأخته زينب . لم يتمكن الأخوان من اكتساب بياض أبيهما . لكن الأم كانت داكنة اللون عنهم جميعاً . وبدا له أن الزوج الثاني كان يميل إلى السمرة فقط . وأين هو الآن ؟ .. سمع الأم – أم نصير – تترحم عليه فقد مات منذ سنة . وآلت تجارته لأخيه وابنته مناصفة .

قال عادل متشككا : لا أعرف في الحقيقة ما إذا كان أبي نصرت أمين الكموني هو والد الدكتور نصير وزينب أم لا ؟ .. لكن حسب الأوصاف التي أدلى بها الدكتور نصير أميل إلى أن الأبوين واحد .

قالت أم نصير : إن نصير لم ير أباه . لقد عاش معي زهاء سنتين أو أكثر .. فلما رُزقت بزينب لم أعد أراه .

قال عادل مبتسما : يبدو أن ذلك أيضاً ما حدث مع أمي . حينما رزقت بأختي سعاد . لم تعد تراه . أيكون هناك عداء بينه وبين الإناث ؟ ..

تساءلت المرأة : كيف ذلك وهو يتزوج منهن ؟ .. لكن ألم يظهر في حياتكم بعد ذلك ؟ ..

قال عادل : أبداً .. ولا مصادفة .

سألت المرأة : إن من ربى أولادي هو زوجي الثاني . فمن الذي رباكم يا ولدي .. يا كبدي عليكم .

قال : تستغربين فعلاً .. لكن ما حدث هو أن أمي قامت بـــدور كبير في هذا الشأن .. لقد خرجت من البيت لتعمل . كانت تنتقـــل من عمل إلى آخر . وبعد ذلك تفرغت للتجارة . قد تظنيـــن أنـــها تاجرت في الفجل والجرجير . لا .. تاجرت في المواد الغذائيـــة . وتوسعت في المحل الذي تستأجره وضمت إلى محلـــها المحـــلات المجاورة . حتى أصبحت معروفة في الحي والســـوق الكـــبرى . وكل ذلك ونحن نجتهد في دروسنا . كانت قوية الشخصية لدرجـــة أننا كنا نهاب دخولها ولا نترك الكتاب من أيدينا . علمتنـــا كيـــف نستذكر وراقبتنا رغم أنها جاهلة . وصرنا على صراطها لا نحيـد عنه . إنها لا زالت تعمل رغم أنها تدنو من السبعين من عمرهـا . تريد أن تصفي أعمالها لأن الكبير – أنا – يعمل طبيباً . والثـــاني يعمل صحافياً والثالثة – وهي أختنا الوحيدة – تعمل في مصـــرف من المصارف .

قالت الأم تفتخر : شيء يفرح القلب .

سألت عزيزة : لكن كيف السبيل إلى إثبات أنكم أخـــوة . أولاد وبنات الكموني ؟ . .

قال الدكتور نصير : ربما عن طريق الدم . ولو أنه ينفـــي ولا يثبت .

قالت عزيزة : لا أفهم .

تدخل الدكتور عادل وقال : هناك حاليا دراسة في الخلايا . جينات الخلايا . تسمى D.N.A لو كانت متشابهة لدل ذلك على أننا أخوة . لكن ما أهمية ذلك ؟ .. يحدث النزاع في حالة وجود ميراث . والأب غائب . بل لا تُعرف له ثروة . وإذا مات أحدنا ورثه أخوته من الأب والأم . ثم من الأب . ولا سبيل للورثة لأننا أيضاً لا نملك شيئاً حتى الآن .

ضحكت عزيزة وقالت : ذلك يحتاج إلى إزاحة كل الورثة من جانب الأم والأب إذا مات أحدكم ليرثه الآخر . ولكن إذا للشخص المتوفى ابناً فلن تفلح الإزاحة . هل لديك أبناء يا دكتور عادل ؟ ..

قال الدكتور عادل ضاحكاً : أبداً . شغلني العلم والعمل عن الزواج . لقد بلغت الخمسين الآن ولم أتزوج .

قالت عزيزة : خسارة أن تدفن شبابك هكذا .

تأملها الدكتور عادل طويلاً : الفرق بينها وبيني ربما أقل من ثلاثين عاماً هي مليحة لكن هل تقبل أن تتزوج رجلاً في الخمسين وهي لم تصل بعد إلى الثالثة والعشرين ؟ ..

قال الدكتور نصير : الرجل يمكن أن ينجب في أي سن .

سألت عزيزة : هل تزوج نصرت أمين الكموني بأخريات بعد أمي وأم سيادتك يا دكتور عادل ؟ ..

قال : لا أعرف . يمكن الآن أن اعرف لو أرسل مثلاً إخطـاراً إلى أمي وهو الآن ربما في الخامسة والسبعين أو أكثر .. إخطـار بأنه يتزوج حتى لا يتعرض للمساءلة إذ حتى الآن لم تطلب أمـي التطليق ..

قالت عزيزة : لا أعتقد أنه سوف يخطر المأذون بذلـك حتـى الآن لا يزال يستعمل البطاقة الشخصية ولم يفكر فـي اسـتخراج بطاقة عائلية حتى يتلافى رفض العروس .

قال نصير : لعله توقف يا عزيزة بعد أن تزوج الأربع حسـب الشرع . ولا يدري أن أمنا طلقته بحكم المحكمـة . أي أن هنـاك ثلاثاً على ذمته .

ضحكوا جميعاً . بينما قامت أم نصير لتحضير وجبـة الغـداء التي وُعد بها الدكتور عادل .

نظر الدكتور عادل إلى عزيزة وسأل : هـل لديـك عـروس لي ؟ ..

قالت : أسوانية أم من القاهرة ؟ ..

قال الدكتور عادل : وهل الإنسان في هذه السن يضع شـروطاً يا عزيزة ؟ ..

قالت ضاحكة : أنا الآن أمامك .. حقيقة أنني أخت أخيك . لكن أجوز لك .

ضحكوا لخفة دم الفتاة . رد الدكتور عادل : أنت صغيرة يا عزيزة . فرق كبير بين سني وسنك .

قالت : لا أهمية للأمر . المهم هو أنني أريد وأنت تريد . والله يفعل ما يريد .

قال الدكتور عادل : إن أول المعترضين سيكون عمك إن لم تكن أمك . وأنا لا أقبل أن أضع نفسي في هذا الموضع .

قال الدكتور نصير : هناك طبيبات لم يتزوجن كثيرات في المستشفى يعملن معنا . لم لا تفحص واحدة منهن وتسألها إذا أعجبها أن تتزوج منها ؟ ..

قال الدكتور عادل : أخشى أن ترفضني .

قالت عزيزة بروحها المرحة : لو كنت سوف تضع العراقيل أمام نفسك هكذا فلن تتزوج أبداً .

نادت الأم على البنتين ليساعداها في تحضير المائدة .

سرح الدكتور عادل بفكره . هل حقاً العلم والعمل هما اللذان عرقلا زواجي حتى الآن ؟ .. إن عيبك الوحيد كان إذا شاهدت امرأة تفكر فيها ثم تبدأ في اكتشاف عيوبها حتى تزهدها . فلا العلم ولا العمل كانا سبباً في تأخير زواجك يا دكتور .

الفصل الثالث

لا أهمية للزوجة الآن . لم يعد الدكتور عادل يفكر فيها بعد أن تخطى الخمسين . ومرت عليه فتيات كثيرات . طبيبات وممرضات . إن مهنة العلاج والطب تزدحم بالإناث . رغم ذلك لم ينشغل بامرأة . ولو أن بعض النساء شُغلن به أنفسهن وطاردنه وهو في مقتبل شبابه . ولما وجدن منه إعراضاً – لا يعرفن سببه – نبذنه . وتركنه في عزلته إلى الأبد . بعكس أخيه الصحفي أحمد الكموني ، فقد كان لا يفتأ يقابل النساء ويواعدهن . ويقول : مادمت حياً فالنساء حياتي . غير أنه مثله لم يتزوج رغم أنه دنا من الثامنة والأربعين . ولكنه محافظ على رشاقته مغرم بالرياضة بعكس عادل فهو كسول ، حتى سمع من يقول عنه أنه " بروتة " ويميل إلى البدانة . أما الأخت الصغرى فقد تزوجت مبكراً ولديها أولاد ثلاثة .

انتشل نفسه من أفكاره ، لما أطرقت الباب ممرضة أسوانية ، سمراء ، عيناها واسعتان ، وشعرها مجعد ، تلمه خلف رأسها ، نظيفة الثياب ، تبدو كملكات الجمال اللواتي ليس لهن حظ من الشهرة . وقالت : حالة مستعجلة يا دكتور . مريض يعاني من فشل كلوي .

نهض بخفة ، رغم ثقل وزنه . وارتدى معطـــف المستشـــفى الأبيض ، وتوجه إلى قسم الكلى لينظر في حالة المريض . وجـــد عنده عامر طبيب الأطفال واقفاً ينتظر قدوم الطبيب . سأله : مـــاذا تفعل هنا يا دكتور عامر ؟ .. قال عامر : هذا المريـــض أبـــي . جئت معه بصفتي ابنه . قال الدكتور عادل : اسمح لي أن أكشـــف عليه . قال : إنه في غيبوبة يا دكتور . ابتسم عادل وقال : وهـــل هذا يمنع من الكشف عليه ؟ .. اضطرب عامر وقال وهو يتنحى : تفضل . تباعد عامر عن موقع الكشف وصار ينتظر من بعيـــد . يترقب في قلق .

أمر الدكتور عادل بإجراء اللازم من فحص للبول وإجراء أشعة على الكليتين وقياس الحرارة وضغط الدم وفحص وظائف الكليتين . ثم قرر في النهاية : سوف أجري له غسيل للكليتين ولكنه يحتاج إلى زرع كلى جديدة يا دكتور عامر . لقد أثبتت الفحوصات أنـــه يعاني من فشل كلوي حاد في وظائف الكلى اليمنى وهـــي تكـــاد تكون متوقفة .

قال الدكتور عامر : أنا مستعد للتبرع بكليتي يا دكتور .

قال الدكتور عادل : ونعم الابن .. نحتاج إلى فحص في انسجام الأنسجة .

وأجرى الفحص فتوافقت الأنسجة . وقال عادل : غداً نجـــري زرع الكلية .

طلب الدكتور عادل من الممرضـــة أمـــاني أن تغســل كليـــة المريض استعداداً للعملية القادمة .

دخل الدكتور عادل حجرة العمليات لاستئصال كليـــة الدكتـــور عامر ، لزرعها في كلية أبيه .

استغرقت العمليتان طويلاً ، وخرج الدكتور عادل من غرفــــة العمليات مجهداً ليجد جمعاً غفيراً من أقارب أبي عـــامر جـــاءوا ليشاهدوا عملية زرع الكلية في رجل عجوز لـــم يتعـــد الخامســـة والستين . يتبرع بها ابنه الطبيب الذي لـــم يتعـــد بعـــد الســـابعة والعشرين .

مسحت أماني العرق من على جبين الطبيب ، وهو يغسل يديـــه الملوثتين بالدماء . وخلع القفاز الجلدي الأصفر وألقى به في ســـلة المهملات . ومشى إلى حجرته وأماني تتبعه . ولما وصل إلى باب الحجرة سألت أماني : أتريد شيئاً يا دكتور ؟ .. قال : أريد كوبـــاً من القهوة لو سمحت . قالت بصوت رخيم : عيني يا دكتور .

ما كاد يدخل ويستريح حتى رن جرس الهاتف . وسمع صـــوت أخيه أحمد الكموني يقول : ذهبت إلى أسوان وقلت لنا عدوا لـــي .

قال : أبداً يا أحمد . مشاغل فقط . كيف حال سعاد وأولادها الثلاثة . وكيف حال ست الحبايب ؟ ..

قال : كلهم بخير .

قال : أنا مرهق يا أحمد الآن . اطلبني في سكن الأطباء مساء . لديك رقم الهاتف .

قال متسائلاً : ولم أنت مرهق ؟ ..

قال : أكثر من أربع ساعات واقفاً على قدمي أنقل كلية طبيب لدينا في المستشفى إلى أبيه المصاب بفشل كلوي .

قال أحمد مستنكراً : عملية زرع كلى تقصد . وتحاول أن تعتم عليها يا عادل . سوف آتي لأنشر خبراً عنها وأجري تحقيقاً بشأنها .

قال عادل : يا أحمد أنا لا أحب الشهرة .

قال أحمد : ألا تستأهل عملية زرع كلي وفي مستشفى حكومي بأسوان . وقام بها طبيب نابه حاصل على الدكتوراه ومنفي .. ألا تستأهل تحقيقاً مستفيضاً عنها ؟ ..

في اليوم التالي . قرأ عادل الخبر في الصحيفة التي يعمل بها أحمد . انبسط من الخبر . وألقى الصحيفة وارتدى ثيابه ليذهب إلى المستشفى .

الفصل الرابع

رقد الدكتور عامر في فراش المستشفى ، والممرضـــة أمـــاني تطمئنه على صحة والده ، الذي لا يزال غائباً عن الوعي من أثـــو البنج . وسألته : يبدو أن والدك عزيز عليك . قال : ومن لا يعـــز أباه . قالت : هناك أناس قليل أو كثير لا يعزون آباءهم . أما أنـــت فمثال فريد .

قال الدكتور عامر : ما دام الإنسان سوف ينقذ عزيزاً عليه مـــن الموت ، فلا بأس أن يقدم التضحية مادامت لن تضره . إن الإنسان يمكنه أن يعيش بكلية واحدة طوال العمر . واســـتئصال كليـــة لا يضر بالشخص .

قالت أماني : على العموم اســـتعد عـــافيتك مبكـــراً فالأطفـــال وأمهاتهم يسألون عنك .

رن جرس الهاتف ، واستغرب أن يطلبه أحـــد علـــى هـــاتف الحجرة التي يرقد فيها ، ولما سأل : من ؟ .. جاءه الصوت قائلاً : أنا عبد الحميد يا عامر ..

قال : أهلا .. كيف عرفت أنني هنا في هذه الحجرة ؟ ..

قال عبد الحميد : عن عامل الهاتف هو الذي حولني إليـــك .. ماذا حدث ؟

قال : لقد تعرض والدي لفشل كلوي . واضطـــررت أن أهبـــه كلية .

قال عبد الحميد : يا لك من رجل بار بأبيك . لو كنت أصلــــح لذلك لتبرعت له بكليتي .

قال عامر : شكراً يا عبد الحميد . أنا أعــرف لطفــك وحبــك لأبي .

عبد الحميد هذا هو زميل الصبا ، حينما كان أبوه يعمـــل فـــي جامعة أسيوط في شئون العاملين ، قام برعايته هو وأختيه ، بعـــد أن ماتت أمهم ، وهجرهم أبوهم .. تكفل بهم يتـــامى ضـــائعين . ودخل عبد الحميد المعهد الديني في أسيوط ، ليتزود مـــن علـــوم القرآن ، وامتهن مهنة قراءة القرآن ، بعد أن أبلى بلاء حسناً فـــي قراءته . غير أن عامر اتجه إلى الطب ، ولولا ما يملكه أبوه مـــن أرض زراعية في أسوان ، آلت إليه بعـــد أن قـــررت الحكومـــة تعويض أهل النوبة عما فقدوه بسبب السد العالي ، لقد تقرر نقلـــهم من ديارهم في أبي سنبل إلى قرية جديدة في أسوان أعدتـــها لـــهم الحكومة ، وأعطتهم أرضاً زراعية لزراعتها ، وأعطى أبو عـــامر الأرض الزراعية لابن عمه لزراعتها ، ولما أحيل إلى المعاش أبو عامر ، ترك أسيوط ليقيم في مساكن أهل النوبـــة بـــالقرب مـــن أسوان ، وزرع بيديه الأرض الزراعية وابنه يستكمل تعليمه فـــي

كلية الطب ، وترك عامر أسيوط ليعمل في المستشفى الحكومي بأسوان ، غير أن عبد الحميد لم يكف عن السؤال عن زميل صباه وشبابه ، وذلك الرجل الذي عطف عليه هو وأختيه وهم صغار .

دخل عليه الدكتور عادل وهو يتكلم ، ولما انتهت المكالمة ، سأله : كيف الحال ؟ .. قال : على خير ما يرام . لكن هل الكلية ثبتت في مكانها لدى أبي أم أن الجسم يريد لفظها ؟ ..

قال : اعتقد أن النسيج متماثل يا دكتور عامر فلا تقلق . هناك جمع من الصحفيين يريد رؤيتك . ويريدون أن يستمعوا إلى ذلك الولد البار بأبيه . كما أنهم سوف يقابلون أباك بعد أن يستيقظ من النوم .

دخل الصحافيون يتساءلون . من بينهم علا نصرت الكموني . وطفقوا يمطرون عامراً بالأسئلة وهو يجيب في هدوء . وحاول أحد الصحافيين أن يستثير عامراً فسأله : ماذا سوف تفعل لو لفظ جسم أبيك كليتك ؟ .. امتعض الصحافيون وردت عليه علا نصرت الكموني : إن العملية يا حضرة لا تجري إلا بعد التأكد من قبول الأنسجة بعضها لبعض . أنسجة المريض بأنسجة المتبرع . وبإذن الله منصور يا دكتور عامر .

نظر الدكتور عادل إلى علا ، وقال لنفسه : إن لماضتها مثل لماضة أخيها أحمد نصرت الكموني ..

أخذها الدكتور عادل بعد أن شاهد أبا عامر ، وكان مترنحاً فلم ينفع الحديث معه ، حاول الصحافيون أن يجروا حديثاً معه ، لكن الدكتور عادل وجده متعباً فرفض إجراء الحديث ، ولاذ المريض بالصمت ، فصرفهم الدكتور عادل ليجرى معهم حديثاً عن زرع الكلى ، ثم قال لهم : فوتوا علينا بكره أو بعد بكرة .

لما انتهى الحديث ، اجتمع الدكتور عادل وأحمد وعلا في حجرة مدير المستشفى . وقال الدكتور عادل : هات ما عندك يا آنسة علا .

قالت : لا .. أنا لست آنسة .. إنما أنا سيدة ودرست الصحافة وأنا متزوجة . وأنجبت ولداً وبنتاً وأنا أعمل في الصحافة .

قال عادل : هات ما عندك يا سيدة علا..

ارتبكت قليلاً ثم قالت : لاحظت أن اسمك الثلاثي عادل نصرت الكموني مثل اسمي الثلاثي . علا نصرت الكموني . فهل نحن أخوان ؟ ..

أشار إلي أحمد وقال : هذا أحمد أيضاً أخي . أحمد نصرت الكموني . فما اللقب الرابع في شهادة ميلادك ؟ ..

قالت : أمين .

قال عادل : يبدو أن العام الجديد أتى إلينا بمفاجآت لم تكن على البال . أن يكون لأبينا أولاد كثر . ولا يعـرف إلا القليـل منـهم القليل .

سأل أحمد : هل هجر أبوكم العائلة ؟ ..

قالت : نعم .. بعد أن أنجبت أمي ثلاث بنات .

قال عادل مقاطعاً : كنت أظن أنه يفارق العائلة بعد أن ينجـب بنتاً لكن هاهي نظريتي تتحطم فلا بد أن هناك سـبباً آخـر لـهذا الهجر . فقد حدث أن التقيت هنا في هذا المستشفى بأخ لي اسـمه الدكتور نصير نصرت الكموني وله أخت اسمها زينـب نصـرت الكموني . وأنا لدي أخت اسمها سعاد نصرت الكموني . فقلـت إن خلف البنات يجعله يهجر العائلة لكن هاهو يهجرها بعـد البنـت الثالثة .

سأل أحمد بفضول : متى ولدت ؟ ..

قالت : أنا ولدت في العام ١٩٧٤ وأختـي فـي العـام ١٩٧٦ وأختي الثالثة في العام ١٩٧٧ . وقد تخرجنا جميعاً من الجامعـة بفضل ما لدى أمي من مال ورثته عن أبيها .

سأل عادل : هل تذكرين أباك يا علا ؟ .. ملامحه صفاته .

تقول علا : لا أذكر طبعاً لأن في العام ١٩٧٧ لم نعد نـــراه . كنت في سن الثالثة من العمر أو أقل بكثير . لكن ســـمعت أمـــي تروي عن أوصافه وحكايات عنه .

سأل : له أوصاف وحكايات ؟ ..

قالت : ربما يكون هو أبوكما مثلما هو أبونا .

سأل أحمد : أين تسكنين ؟ ..

قالت : نحن نسكن في مصر الجديدة .

قال أحمد : نحن نسكن في حي الحلمية .

قال عادل : لو جلسنا حتى الصباح نتحدث لما انتهينا . علينا أن نأكل أولاً ..

الفصل الخامس

في يوم الخميس عند الغروب ، والشمس يكاد يبلعها الأفـــق ، وصل الشيخ عبد الحميد إلى أسوان قادماً من أسيوط . جاء ليبارك بسلامة العملية لمربيه الفاضل أبي عامر . ويهنئ الدكتور عـــامر على سلامة استئصال الكلية منه ومنحها لأبيه بحب وعطف . فـــي تلك اللحظة ، أبلغ الدكتور عامر الدكتور عادل أن والدته توفيـــت أثر نوبة قلبية مفاجئة ، وأنه لن يتمكن من الحضور إلى المستشفى في اليوم التالي . وضرب الدكتور عادل كفيه أحدهما بـــالآخر .. وقال الرجل العليل تماثل للشفاء والمرأة الصحيحة ودعت الحيـلة . وذكر المثل القائل : عليلكم ما حاله فأجيب السائل صحيحنا مات . وقال الدكتور نصير : هل ستذهب إلى العزاء .؟ .. قال الدكتـــور عادل : هذا أمر لا شك فيه .

في بداية حياته لم يكن يجامل ، لذلك فتح ثغرة في الـــود بينـــه وبين الناس . وكان يعتمد على أن الحياة في القاهرة مفتوحة تتـــوه فيها المجاملات ولا تُذكر . أما هنا في هـــذه المدينـــة الصغـــيرة والقرى القليلة المتناثرة فإن المجاملات أساسية لا يفلت منها كبـــير ولا صغير . خاصة إذا كان مديراً لمستشفي به جمع كبـــير مـــن الموظفين .

سأل الشيخ عبد الحميد عن موقع قرية الدكتور عامر ، غـير أن عامل الهاتف المركزي أبلغه أن الدكتور في إجازة لوفاة أمـه ، أبلغه أنه يعرف وأن الطبيب أبلغه بالأمس حينمـا طلبـه للمـرة الثانية ، ولكنه يسأل عن الموقع ، فقال له العامل ينصحه أن يذهب مع الدكتور نصير عند المغرب ولكنه فضل أن يذهب منفرداً فـلا ينتظر أحداً .

دخل الشيخ عبد الحميد على المعزيين . وكانوا كثراً فـاضطر أن يصافحهم جميعاً . واحتضن عامر بشدة ، وصافح أبا عـامر بامتنان . يرفض أن ينهض وهو مريض . وكان الرجل جالسـاً لا يقوى على الوقوف بعد العملية الجراحية . وجلـس الشـيخ عبـد الحميد بجانب الدكتور عامر . وعندما بدأت الشمس تغيب وقفـت سيارة المستشفى المخصصة للمدير ونزل منها بعض الأطباء على رأسهم الدكتوران عادل ونصير . واحتضنا عامر نصيراً بشـدة ، وشد على يد الدكتور عادل ، فلم تكن المدة القصيرة في التعـارف تسمح بأكثر من ذلك . الأول زميل في الدراسة بكلية الطب ، أمـا الثاني فمديره وله هيبته . يمكن أن يقبـل نصـير القبـلات بـلا غضب . وإذا ما حاول تقبيل المدير فقد يأبى ويتبـاعد ، فليـس أحسن من شد اليد في هذه اللحظات الكئيبة .

جلس الدكتور عادل ونصير بجانب عامر وأبي عامر والشـــيخ عبد الحميد . وتفرق بقية الأطباء على الصوان الصغير . ولم يكن لعامر أخوة ذكور ، إذ كان ذكراً على سبع بنات . وكلهن داخـــل الدار . وراح عامر يعرف الدكتورين بالشيخ قائلا: الدكتور عـادل نصرت الكموني . والدكتور عادل نصرت الكموني أخوان . ولــم يعرفا أنهما أخوان إلا عما قريب .

قال الشيخ عبد الحميد متهكماً : وأنا الأخ الثالث . سأل الدكتور عادل : كيف ذلك ؟ ..

قال الشيخ عبد الحميد مبتسماً : أنا اسمي عبد الحميد نصـــرت أمين الكموني ولعل لقب الكموني لم تكن تعرفه يا دكتــور عــامر لأني لا استعمله . انفجر الدكتور عادل قائلاً : يا للصدفة . كيــف نتجمع هكذا أحدنا لا يعرف الآخر ونحن أخوة . قال نصير يسأل : ماذا كان يعمل أبوك يا شيخ عبد الحميــد ؟ .. أجــاب : منــدوب مبيعات . قال الدكتور عادل متهكماً : وهل هجركم – هو الآخـــر بعد أن أنجبت أمك البنت الأولى ؟ .. قال الشيخ عبد الحميـــد : لا .. إنما جاءت الثانية فاختفى . ولا نعرف أراضيه . قال الدكتـــور نصير : هذا ما فعله معنا .. وفعله مع أزواجه جميعاً . لقد اكتشفنا صحافية اسمها علا نصرت الكموني هي أختنا أيضاً . سافرت منذ

أيام إلى القاهرة بعد إجراء تحقيق مع الدكتور عادل حول عمليـــة زرع كلية عمي أبي عامر .

قال الشيخ عبد الحميد : هذا الرجل بركة . لقد ماتت أمي بعـــد اختفاء أبي حزنا على هجره . وتولانا عمي بل أبي الشـــيخ أبـــو عامر .

سأل الدكتور عامر : وأين تركت أختيك الآن ؟ ..

قال عبد الحميد وهو يكاد يبكي : لا أعرف عنهما شيئاً . ذهبت إلى الجامع الأزهر لأقدم على دراسات عليا في الشريعة . ولمـــا عدت لم أجدهما في البيت . أبلغت الشرطة والبحث جار عنـــهما . لا أدري هل اختطفا أم غادرا الدار عمداً .

قال أبو عامر : سوف تجدهما بـــأذن الله .. نريـــد أن نســـمع صوتك يا شيخ عبد الحميد على روح الحاجـــة آيـــات طـــاهرات تسمعنا إياها يا شيخ عبد الحميد .

قال الشيخ : وهل أنا أجرؤ على الرفض ؟ . .

نهض الشيخ عبد الحميد واتجه إلى كرســـي عريـــض طويـــل يتوسط القاعة ، كان يقرأ عليه شيخ معمم . وطفق يقرأ ما تيســـر من آي الذكر الحكيم .

همس الدكتور عادل للدكتور نصير قبل أن يقرأ الشـــيخ عبـــد الحميد : أنا متأكد أن أباك – أو أبي – لم يترك محافظة إلا وكانت

له فيها أولاد . هل لا يزال يتزوج حتى الآن ؟ !! .. أم أن السن حجمته .

قال الدكتور نصير : حتى الآن أربع زوجات أم علا وأم عبد الحميد وأمك وأمي .. فهل تراه تخطى الحدود وتزوج الخامسة والسادسة أم لعله يطلقهن دون أن يعلمن .

قال الدكتور عادل : ربما يواجه المرأة في اللحظات الأخيرة ويعلنها أنه طلقها . غير أنها لا تبوح بسرها أبداً على أمل أنه سيردها حفاظاً على كيان أسرتها .

قال الدكتور نصير : لا أعتقد ذلك وإلا لكانت أمي قد قررت ذلك ولم ترفع دعوى . قال الدكتور عادل : ربما لم يكن لديها إثبات لأنه يطلق كلمة الطلاق دون شهود .

وسكتنا عن الكلام حينما بدأ الشيخ يرتل بصوت رخيم .

الفصل السادس

جلس الدكتور عادل يكتب . وأمامه الشيخ عبد الحميد والدكتور عامر . كان يحاول أن يكتب تاريخ عائلة نصرت أمين الكموني . وانضم إليهم أحمد الكموني الصحفي بالقاهرة وتابع معهم ما يكتبه أخوه .

خلال الفترة (١٩٥٠ - ١٩٥٤) كان نصرت الكموني في القاهرة متزوجاً من أم عادل وانجب منها عادلاً وأحمد وسعاد .

خلال الفترة (١٩٦٠ - ١٩٦٢) كان في أسوان وتزوج من أم نصير وأنجب منها نصيراً وزينب .

خلال الفترة (١٩٧٥ - ١٩٧٧) عاد نصرت إلى القاهرة وتزوج أم علا وأنجب منها علا وأميرة وابتهاج ..

ثم خلال الفترة (١٩٧٨ - ١٩٨٠) تزوج نصرت الكموني في أسيوط وأنجب عبد الحميد ورقية وكاملة . فأين كان في الفترة من (١٩٥٥ - ١٩٦٠) ؟ .. وأين قضى الفترة (١٩٦٣ - ١٩٧٤) وأين قضى الفترة من (١٩٨٢ - حتى الآن) . إذن هو يتنقل من القاهرة إلى أقصى الصعيد ثم يعود إلى القاهرة ليذهب إلى وسط الصعيد . فهل هو مطارد ؟ .. هل هو الآن في

القاهرة أم أنه ذهب إلى أقصى الوجه البحري أم إلى أول الصعيد أم ذهب إلى أقصاه . ذلك إذا كان يذهب ويجئ على هذه الوتيرة .

قال الشيخ عبد الحميد : ما الفائدة في أن نعرف ما إذا كان موجوداً أم مات ؟ .. وما الفائدة في أن نعرف أين مكانه ؟ ..

قال الدكتور نصير : إنه دون أدنى شك أبونا . ويجب علينا أن نبحث عنه .

قال الدكتور عادل : هذا ما قصدت أن نعرفه من خلال تدوين تحركاته . وبعد ذلك نحاسبه ؟ ..

قال الشيخ عبد الحميد : وهل نحاسبه على أنه هجرنا أو تركنا ونحن يتامى أو كاليتامى ؟ .. وهل نجرؤ على محاسبته ؟ .. من في قدرته أن يحاسب أباه ؟ ..

قال الدكتور عادل : هذه هي المعضلة ؟ .. من منا يمكن أن يحاسب أباه على ما فعل أو ما يفعل ؟ ..

تساءل الشيخ عبد الحميد : هل كان يطمئن علينا من بعيد ؟ . أنا أكاد أجزم بذلك . لأنه لما وجدنا نتقدم لم يظهر . لعله كان يبرنا دون أن ندري . ماذا يريد الإنسان من دنياه سوى علم نافع وعمل صالح ودعوة مستجابة . والحقيقة أنني لا ادري من تخلف منا في العلم والعمل والدعوة . حتى الإناث مشين على نفس الدرب . إن سعاد كما تقول يا دكتور عادل مصرفية . وزينب

معلمة . وعلا صحفية وأختيها لا بأس بهما . ومن نـــاحيتي لــم أتوقف عن ترقية مدارك رقية وكاملة وهما الآن فـــي الســنوات النهائية من الآداب والعلوم .

قال الدكتور عادل : لا تنس أن تخطرنا إذا تم فك أســـرهما . واعتقد أن الجماعات المتطرفة اختطفتهما ليجبراك على الانضمــام لهم . جاريهم حتى تفك أسرهما مع إعلام الشرطة بذلك .

تأمل الشيخ عبد الحميد الكلمات وقال : ربما أفعل ذلك .

سأل أحمد : كيف تترك أختيك مخطوفتين وتأتي إلـــى أســوان للمباركة بنجاح عملية .

قال الشيخ عبد الحميد : وهو يطأطئ الرأس : ماذا أفعـــل ؟ .. أبلغت الشرطة ثم جاءني خبر نجاح عملية والد الدكتور عامر ونبأ وفاة أمه . وأبو عامر له أفضال كثيرة علينا فوجدت من واجبي أن أقدم واجب العزاء .

قال أحمد : قلبك شديد يا شيخ عبد الحميد .

قال الشيخ عبد الحميد : أبداً . إنه يتمزق . وماذا كنت ســأفعل في أسيوط . هل سأدور في الشوارع أنادي عليهما أو أسافر إلـــى القرى والنجوع .

قال أحمد : أعتقد أنه آن الأوان أن نسافر إلى أسيوط . ســأكون معك في كل خطوة . وإلا ما كنا اخوة .

قال الدكتور عادل : حاول يا أحمد – لو كان لك معارف هنـاك – أن تداهم بيوت هؤلاء المتطرفين لتبحث عن الفتاتين .

قال أحمد : هذا فعلاً ما سأفعله .

ثم أردف : أما موضوعك فسوف أرسله بالفاكس إلى الجريدة . وألف مبروك على نجاح العملية وتماثل المريض للشفاء رغم مـــا أصابه من أحزان .

احتضن أخمد الدكتور عادل كما احتضنه الشيخ عبـــد الحميـــد وكذلك احتضنا كل منهما الدكتور نصير . وخرجا ليركبا قطــــار الليل متجهين إلى أسيوط .

كانت الدنيا ظلاماً حولهم . وأشار أحمد إلى الشيخ عبد الحميـــد إلى أن ذلك الظلام هو بداية كل شيء ثم ينقشع بعد ذلـــك ليكـــون النور وتتضح الحقيقة .

الفصل السابع

دخلا معاً إلى الساحة الواسعة الواقعة أمام محطـــة القطـــار . الصمت يخيم على المكان كأن لا مسافرين هنـــاك . فكـــر أحمـــد الكموني في أفكار تراوده . أليس من الواجب أن اجـــري تحقيقـــاً حول نصرت الكموني . سأجريه مع أمي .. سأجريه مع أم عـلا.. وهنا في أسوان توجد امرأة أخرى هي أم نصير . ومن التحقيقـات المختلفة استخلص شكلاً ومضموناً للكموني ، أما أم الشـــيخ عبـــد الحميد فقد توفيت . وعليّ بعد ذلك أن أوجه نداء إلى الكمونـــي أن يظهر إن كان حياً . لعله كان يترك أولاده مع الأمهات الأخريات لأنه يرى أن الأم سوف تكون بألف رجل . لكن حينما مـــاتت الأم – أم عبد الحميد – ألم يكن من الواجب أن يظهر ويرعاهم . أم أنه يهجر المكان ولا يعود إليه ولا يسأل عمن له فيه .

والشيخ عبد الحميد غارق في أفكاره – هو الآخر – هل تمكنت الشرطة من ضبط الجناة ؟ .. وهل تم خطف الفتاتين فعـلاً ؟ .. أم أن حياة الضنك التي نحياها جعلتهما يهربان من أخيهما ؟ .. لـــم أكن رجعياً لدرجة كبيرة . وهما من نفسيهما تحجبتا . ولم يظـهراً إلا الوجه فقط . لم أجبرهما على فعل شئ ، وقد سألت عنهما فـــي الجامعة فلم أجد أنهما تحضران .

قال السيخ عبد الحميد : سوف نتعبك معنا .

قال أحمد : لعل الأمر يأتي بفائدة . أنا أعرف زملاء لي في الشرطة في محافظة أسيوط لعلهم يساعدوننا . ويخدموننا . لكن الأمر يتوقف على استمرار الفتاتين مخطوفتين في أسيوط . ولا تكون الجماعة التي خطفتهما قد نقلتاهما خارج أسيوط . في هذه الحالة سوف يتعسر البحث .

سكت أحمد ثم سأل : هل تعتقد أنهما خطفا أم أنهما ضاقتا بحياتهما معك فتركاك مثل هي عادة أبينا في هجر العائلات التي يكونها .

ابتسم الشيخ عبد الحميد رغم ما يملؤه من هم . وقال : ربما .. بذرة الكموني فيهما . ولكن كيف لي أن أعرف ؟ .. لقد كنت وقتها في القاهرة للتقديم للدراسات العليا في جامعة الأزهر . ولما عدت لم أجدهما . لو كانتا قد تركتا البيت بإرادتهما لتركتا لي ورقة على الأقل تعلماني بي فيها أنها لن تعوداً . ولكن يبدو أن الأمر تم عنوة واقتداراً .

قال أحمد : وإذا فرضنا أن الجماعات المتطرفة هي التي خطفتهما .. للضغط عليك حتى تنضم إليهما فماذا يمكنك أن تفيد هذه الجماعات ؟ ..

قال الشيخ عبد الحميد : ربما من خلال الخطب والدروس في المسجد ، فأنا إمام لأحد المساجد . .

سأل أحمد : وهل تفاهموا معك من قبل على الانضمام إليهم .؟

أخذ الشيخ عبد الحميد يتذكر ثم قال : يبدو أن الأمر كان تلميحاً فقد لمح أحد أعضاء هذه الجماعات منذ فترة وصرفته بالحسنى .

قال أحمد : وهل تذكر شكله ؟ ..

قال الشيخ : أحاول . لكن الآن لا أذكره .

لما دخل أحمد الكموني شقة الشيخ عبد الحميد رأي معالم الفقر تنتشر في كل الأرجاء . سأله : ماذا تعمل ؟ ..

قال الشيخ : أعمل مدرساً في المعهد الديني بأسيوط .

ثم سأل الشيخ عبد الحميد : لم ؟ .. هل لأنك صدمت بالأثاث الأغبر والشقة المتواضعة .

قال : نعم .. ذلك حق .

قال الشيخ عبد الحميد : المرتب لا يكفي خاصة إذا عرفت أنني أعول أختي رقية وكاملة . ولا زالتا تدرسان .

تأمل أحمد الكموني ثم سأل : هل تعتقد أننا يمكن أن نصل إلى أبينا ؟ ..

قال عبد الحميد : كل شيء ممكن إلا إذا كان قد مات . أخوك الكبير عمره الآن خمسون سنة . فلا أقل أن يكون عمر والدنا سبعين أو خمسة وسبعين عاماً الآن .

سأل أحمد : هل لديك وثيقة زواج والدتك من نصـــرت أميـــن الكموني .

قال الشيخ : موجودة .

ثم استطرد : لن تجد فيها إلا عنوان هذه الشقة التي نقيم فيـــها منذ أن تزوج أبي بأمي . ورقم البطاقة الشخصية التي تزوج بها .

قال أحمد : لو أطلعت على وثيقة زواج أمي وقارنتها بوثيقـــة زواج أبيك لربما ثبت أنهما واحد .

قال الشيخ ضاحكا : كانت الفترة من خمسين إلى خمسة وستين سنة تخضع لنظام بطاقات معينة . والفترة بعد ذلك تخضع لنظـــام بطاقات آخر . لن يسمح الوضع من التأكد والمقارنة .

الفصل الثامن

تأملت رقية المكان الحقير ، وتطلعت إلـــى الحـــرس الواقـــف أمامها . ثم سألت أحد الحراس غير هيابة : لمـــاذا نحـــن هنـــا . مربوطتان كالسائمة . هل تريدوننا أن نحرك لكم ساقية ؟ ..

ابتسم الحارس رغماً عنه لخفة دمها . وقال : حينما يأتي الأمير سليه سوف يجيبك . سألت بفضول : ومتى يأتي ؟ . قال : حالاً .

جاء الأمير مرتدياً ثوباً أبيض ، قصير ، وقد غطـــى رأســـه بغترة بيضاء شفافة دون أن يضع عليها عقال ، فســـألته : مـــاذا تريدون منا ؟ . أجاب : سوف نتصل بأخيك حتى يكون معنا .

قالت رقية بجرأة : إن أخي مشـــغول بدراســـاته العليـــا فـــي الشريعة . ولا وقت عنده ليسفك الدماء ويسرق الذهـــب ويعتـــدي على النساء .

سألها : وهل اعتدينا عليكما ؟

قالت كاملة : ألا يعد توثيقنا في هذا الكرسي المخلع القديم دليل على اعتقالنا . وهل تعتقد أن الشيخ عبد الحميد سوف يرضخ حتى تفكوا أسرنا ؟ ..

قال الرجل ساخراً : نحاول .

قالت رقية : إن الذي تفعله فينا هو الحرابة بعينها . وأنت تعرف جزاؤها . بسم الله الرحمن الرحيم : إنما جزاء الذين

يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . صدق الله العظيم .

قال الأمير ساخراً : إنك تحفظين القرآن جيداً .

قالت رقية : وأعمل به . لا أعمل ضده . مالنا وآراؤكم نحن . إن قسر الأشخاص على الانضمام إليكم هو الحرابة ذاتها التي نهى عنها القرآن الكريم .

قالت كاملة : إنك يا سعادة الأمير لن تبلغ مرادك لأنك متى أبلغت الشيخ عبد الحميد بمرادك فلن يطاوعك .

قال الأمير : سوف نرى . لقد قصدنا منزلكم ولم نجد أحداً . يبدو أنه لم يعد من الخارج .

قالت رقية : لقد سافر إلى القاهرة ليسجل اسمه في الدراسات العليا بكلية الشريعة بالأزهر الشريف . وقد يتأخر . وكلما تأخر زاد ذنبكم ، ولن يغفر الله لكم .

في نفس الوقت كان أحمد الكموني وعبد الحميد الكموني يقابلان مأمور قسم الشرطة . وصافح أحمد المأمور بقوة ، فقد كان زميله في الدراسة الثانوية . وقدم له الشيخ عبد الحميد على

أنه أخوه ويهمه أمره ، وأن عليه أن يبذل مجهوداً في سبيل الكشف عن الفتاتين . وأسر له أحمد أنه يعتقد أن الجماعات المتطرفة اختطفت الفتاتين على أمل أن تضغط على الشيخ عبد الحميد لينضم إليهم . لذلك طلب من المأمور أن يقيم حراسة مدنية غير ظاهرة على منزل الشيخ عبد الحميد ، وتراقب الحراسة من يدنو من الشيخ ليساومه .

لما عاد الشيخ إلى منزله ، ومعه أحمد ، استأذن الأخير ليشتري علبة سجائر . ونظر إليه الشيخ ممتعضاً ، وقال : ألا تعرف أن السجائر تضرك ؟ .. قال : سوف أبطلها من أجل خاطرك . ولكن اسمح لي في هذا الوقت العصيب أن أدخن . وأقلع عنها بعد ذلك .

ووجد الشيخ عبد الحميد شخصاً واقفاً عند الباب ، يرتدي ثوباً أبيض ، ويغطي رأسه بغترة . وسأله : أنت الشيخ عبد الحميد ؟ .. قال : نعم . قال : إن أمير جماعتنا يريدك . هل تأتي معي ؟ . فهم الشيخ أن ذلك الرجل فرد من مختطفي أختيه ، فقال على الفور : وهو كذلك .

تلكأ الشيخ عبد الحميد أمام الباب ، حتى يصل أحمد فيأخذه معه . غير أن أحمد لم يكن يعرف المحلات في المنطقة ، فغاب طويلاً ، فما كان من بد الذهاب إلى هذا الأمير .

في الطريق شاهد أحمد الشيخ عبد الحميد يسير وبجانبه آخر .يرتدي جاباً قصيراً وعلى رأسه غطاء أبيض ، وقال : هذا شخص من الجماعة المتطرفة . لذلك مشى أحمد وراءهما دون أن يلحظاه .

عند بيت بعيد عن العمران شقا الحقول وأحمد يتخفى في المزروعات ، دخل الشخص ووراءه الشيخ عبد الحميد أحد البيوت المنخفضة . فما كان من أحمد إلا أن أسرع قاطعاً الخلاء جرياً . وطلب من المأمور هاتفياً أن يوافيه بقوة للقبض على الجماعة المتطرفة لأنها تساوم الآن الشيخ عبدا الحميد . وسينتظر أحمد القوة عند أول الخلاء المتفرع من شارع سماه له وعده المأمور أن تصله قوة في الحال . ووصلت القوة بعد دقائق مسرعة حيث دلهم أحمد على البيت . وحاصرت القوة الدار المنخفضة . وطرق الضابط الباب ، فلم يفتح أحد . كانت هناك عين سحرية تدل من بالداخل عمن بالخارج . فأمر الضابط بكسر الباب على الفور حتى لا يضيع من الوقت . وحاول بعض الأشخاص الإفلات من شرفات الدار المنخفضة ، لكن تم القبض عليهم . وسرعان ما خرج الشيخ عبد الحميد مع الضابط برتبة نقيب . ومعه أختاه رقية وكاملة . . وقد أنساق وراء العسكر أعضاء الجماعة الذين فكروا أن يقاوموا بالبنادق . غير أن هجوم الشرطة كان أسرع منهم .

واقتيدوا جميعاً إلى قسم الشرطة .

وهناك تعرف احمد على رقية وكاملة . وقال لـــهم الشـــيخ إن الأستاذ أحمد أخوكما . مثلي تماماً ليس أخا في الإنسانية فحســـب إنما أخ من العصب . واستغربا وتساءلا في نفس واحـــد : كيــف حدث ذلك ؟

أجاب أحمد : هذا ما أود معرفته .

الفصل التاسع

قرر أحمد الكموني وهو في طريقه إلى القاهرة ، تاركاً الشيخ عبد الحميد وأختيه بعد أن تم القبض على مختطفي الفتاتين ، وتحررتا من قبضته . أن يستخلص حقيقة أبيه نصرت الكموني من أمه ، ثم بعد ذلك أن يتصل بعلا الكموني ليسمع من أمها شيئاً عنه . ثم يذهب إلى أسوان – مرة أخرى – ليستمع إلى أم الدكتور نصير ، ثم بعد ذلك يستمع إلى والد الدكتور عامر فقد عاصر أم الشيخ عبد الحميد وكذلك كانت له صلة بنصرت الكموني . لعله يستخلص منهم جميعاً الأسباب التي أرغمت نصرت الكموني على ترك أبنائه من زوجاته . ولو أنه كان يشعر بالفشل مقدماً لأن هؤلاء الناس ليسوا من الذكاء حتى يستخلصوا الحقيقة المرة .

لما التقى بأمه احتضنها على غير العادة ، وأخبرها أن الدكتور عادل الكموني يرسل لها تحياته ، ثم طلب منها أن تستمع له جيداً ، فقد اكتشف في زيارة أسوان ، وهو يجري تحقيقاً عن عملية زرع كلية لمريض أجراها الدكتور عادل ، أن له أخوة من أبيه في أسوان وفي أسيوط وفي القاهرة أيضاً

استغربت المرأة ما قاله ابنها أحمد عن أبيه . وقال أحمد : حتى أتأكد من أن الأب واحد لهذه العائلات الأخرى بالإضافة إلى عائلتنا . أرجو أن تحكي لي حكايتك مع أبينا نصرت أمين

الكموني من البداية إلى النهاية ، وأن تذكري تفاصيل الأيام كاملة ، وسوف أقوم بالاستماع إلى روايات النسوة الأخريات عن ذلك المدعو نصرت أمين الكموني ، وأقارن بين الروايات المختلفة لاستخلص منها سبب هجره لهذه العائلات .

رفضت الأم أن تروى شيئاً إلا بعد أن صححت أن أباه ليس مدعواً فأعتذر . ثم قالت الأم : وفيم ستفيد القصة يا بني وقد حدث ما حدث . ومر عليها الآن أكثر من سبعة وأربعين سنة . منذ أن غادرنا أبوك .

قال أحمد متفلسفاً : أريد تأصيل الحدث ومعرفة أسبابه ؟ ..

سألت الأم مندهشة : ما معنى تأصيل الحدث ؟ ..

قال أحمد : أي إرجاع الأحداث إلى أسبابها .

قالت الأم : أنا لا أستطيع أن أروي . سل ما تشاء وأنا أجيب عليك .

سأل أحمد : كيف تعرفت على نصرت أمين الكموني ؟

قالت الأم : كنا نسكن في منزل واحد . كانت له حجرة فوق السطوح . وأنا لي الحجرة المقابلة .

سأل أحمد : هل لك أن تصيفيه لي ؟ .. وتذكري عاداته في ذلك الوقت .

قالت الأم : كان شخصا عاديا . كان طويل القامة محني العمود الفقري . يذهب إلى عمله في الصباح ولا يعود إلا في المساء . كان يلقي السلام علي حينما يراني . ويلقي علي تحية المساء وهو يدخل حجرته وأنا جالسة أتأمل النجوم .

سأل أحمد : هل عرفت ماذا كان يعمل في تلك الأيام ؟ ..

قالت الأم : سمعت من جارة أخرى في نفس السطح أنه يعمل مندوب مبيعات لشركة من شركات السجائر . وكان لديه عجلة يضعها عند باب المنزل الذي نسكنه . ويوثقها بإحكام حتى لا تسرق . فلم يكن ممكنا أن ينزل بها كل يوم من السطح إلى باب المنزل ويعود بها من جديد إلى السطح .

سأل أحمد : وماذا كنت تعملين أنت ؟ ..

استحت المرأة أن تتكلم ، وسألت : هل ذلك لازم ؟ ..

قال أحمد : لازم يا أمي . لا تستحي .. العمل حق والعمل شرف ..

قالت الأم : خادم في أحد البيوت . أذهب صباحا وأعود عند العصر .

برقت عينا الابن ، وشعر بأنه يكشف سرا لم يكن يعرفه . ثم تغاضى عن ذلك وسأل : هل لك أقارب أو كان له أقارب ؟ ..

قالت الأم : كنا نحن الاثنين لا شجرة لنا . لا أحد يزورنا . ولا نزور أحداً .

سأل الابن : وكيف تعارفتما ؟ ..

قالت : مُرض يوماً بنزلة معوية نتيجة وجبة ملوثة اشتراها من السوق . وقمت برعايته في ذلك الوقت رعاية كاملة . ولما برأ من مرضه ، سألني أن نتزوج ، ووافقت . اشترط عليّ ألا أعمل وأن أبقى في البيت . شعرت وقتها بغبطة لما اشترط ذلك الشرط . تزوجنا . واستأجر شقة لي في الجيزة في أحد أحيائها الشعبية عند مستشفى أم المصريين . تلك الشقة التي تركناها لما تخرج أخوك من كلية الطب وتخرجت أنت من كلية الآداب وأختك من كلية التجارة . وارتفع دخلنا . استأجر أخوك الشقة الجديدة بالقرب من مستشفى عابدين حينما عمل في تلك المستشفى .

قال أحمد : لا تسبقي الحوادث يا أمي .. إننا نسير على مهل . صفي لي عاداته بعد الزواج بالتفصيل لو سمحت .

قالت الأم : لم يكن يتكلم كثيراً . كان يخلد للصمت . واستمر على عادته .. يخرج في الصباح ولا يعود إلا ليلاً في المساء لأنه – كما كان يقول – يوزع السجائر على الحوانيت والمحلات وأكشاك السجائر ويحاسب كل مؤسسة أولاً بأول . كان يعمل في شركة كبيرة هي شركة ماتوسيان في ذلك الوقت .

قال أحمد : لما رزقت بالدكتور عادل . ماذا كان تصرفه ؟ ..

قالت الأم : لا أعرف . هل هـو أب حنـون أم أب لا أهميـة للأطفال عنده . لأني لم أكن أراه إلا في المساء والطفل نائم . ثـم يأكل وينام . لا يهدهد عادلاً أو يتأمله من بعيد . كنت أشـعر أن عواطفه جامدة . ولم يبد عليه فرح لأنه رُزق بطفل ، لكـن فـي نفس الوقت لم اشعر أنه حزين .

سأل أحمد : هل كان ينفق بسخاء على بيته ؟ ..

قالت الأم : نعم . كان كريماً للغاية . يشـتري الخضـراوات والفاكهة . يشتري كل لوازم البيت . لم يكن يبخل علينـا بشـيء بطبيعة الحال في حدود إمكانياته . كنت أطير فرحاً لما أراه داخلاً عليّ يحمل متطلبات البيت . وكان من عادتـه أن يدخـر معـي مدخراته . وكنت أضع القرش بجانب القرش ولا أطـالب بشـيء جديد . كان يعرف ما عليه ولا يرفض أن يشتري شيئاً أطلبه . بل كان يشتري كسوتي وكسوتكم دون تذمر .

سأل أحمد : وهل كان يكسب كثيراً من وظيفته ؟ ..

قالت الأم : لا أعرف شيئاً عن دخله إنما كل مـا أعرفـه مـا يتركه من مدخرات . تلك المدخرات التي أعانتني على أن أربيكـم فيما بعد وافتتح محل البقالة الذي توسعت فيه .

انتظر أحمد طويلاً ، وهو يفكر ، والأم تترقب وتنتظر سـؤاله التالي ، وفوجئت به يسأل : وما نوع المنازعـات والمشـاجرات بينك وبينه ؟ ..

قالت الأم : لم تحدث منازعات أو مشاجرات بيني وبينه . ذلـك لأن الوقت لم يكن واسعاً حتى تحدث مثل هذه المشاجرات , وقـد تحملت أعباء البيت وتحمل هو أعباء السوق ، فكان إذا أتي يجـد لقمته جاهزة . وكنت استلم منه متطلبات البيت .

دخلت سعاد الكموني في ذلك الوقت عـائدة مـن المصـرف ووجهها متهلل . وتدخلت في الحديث قائلة : لدي خـبر اليـوم . سوف يسعدكم جميعاً .

سألت الأم : وما هو ؟ ..

تدخل أحمد قائلاً : حينما انتهي من تحقيقي تسردين علينا الخبر الذي سوف يسعدنا جميعاً .

سألت سعاد منزعجة : أي تحقيق ؟ ..

قال أحمد : انتظري . كدنا ننتهي .

عاد يسأل أمه : ألم يحدث اعتراض على مولدي أو مولد سـعاد من ناحيته ؟ ..

استرقت سعاد السمع مستغربة التحقيق . ومع مـن ؟ .. مـع أمها . وسمعت الأم تقول : لا .. بعد ولادة سعاد ، خرج بالدراجة

ولم يعد . لا أدري أين ذهب ؟ .. أبلغت الشـــرطة فلـم يعـثروا عليه . ذهبت إلى ماتوسيان أسأل عنه قالوا لي إنه انقطـــع عــن العمل دون عذر أو سبب واضح وطلبوا مني إذا رأيته أن أطلـــب منه أن يسلم الدراجة للشركة لأنها عهدة .

سأل أحمد : تذكري يوم مغادرته بالتفصيل يا أمي فهذا هام .

قالت الأم : كما قلت لك .

سأل أحمد : هل تبين لك أنه يكره البنات ؟ ..

تدخلت سعاد وقد اكتشفت أن يسأل عن أبيها : وما لهن البنـــات يا أستاذ أحمد ؟ ..

قالت الأم متجاهلة اعتراض ابنتها : لا .. لم أتبين ذلك . فمثلما عامل عادلاً عاملك وكذلك سعاد ..

سأل أحمد : هل سألت عنه في المستشفيات عنـــد مغادرتـــه أو لدي معارفه ؟ ..

قالت الأم : لم يكن له أصدقاء . وسألت عنه في مستشـــفى أم المصريين فلم أعثر على مريض باسمه . سألت فـــي مستشـــفيات الدقي ، ربما دخلها صدفة وهي غالية لكن لم أعثر عليه .

سأل أحمد : ماذا تعتقدين سبب مغادرته البيت ؟ ..

قالت الأم : ربما .. ربما أقول . قد فقد ذاكرته أو مـــات فـــي حادث ولم يستدلوا علي اسمه وعنوانه . لكنك تقول إنـــه تــزوج

وانجب . . ولا يزال يُدعى باسم نصرت أمين الكموني . . ربما يا بني . حدث له هوس فصار يتزوج من حين لآخر .

قال أحمد : مشكلة .

التفت إلى سعاد وقال : ما الخبر يا سيدة سعاد الـــذي ســوف يسعدنا جميعاً .

قالت سعاد : تقدم لي عريس .

كيف يتقدم لها عريس ولها ثلاث أولاد ؟ ..

الفصل العاشر

يقول المثل : تصوم .. تصوم .. وتفطر على بصلـــة . هكــذا كان واقع سعاد نصرت الكموني . بنت نصرت الكمونـــــي التـــي اقتفت أثر أخيها الكبير وأعرضت عن الزواج ، بعد وفاة زوجـــها الأول والذي رُزقت منه بثلاثة أولاد . وكان الأخ الأكبر يعدها من المتزوجات رغم أنها تعد أرملة لأن وضـــع الأرملــة والمطلقــة يختلف اجتماعياً عن المتزوجة . ولعل الأخ الكبير الدكتور عـــادل الكموني كان يتملكه شعور بالانعزال ، ومن مظاهر هذا الانعــزال هي ألا يتزوج ، فتملكها ذلك الشعور بعد وفاة زوجـــها . فتلقائيـــاً أشع ذلك الشعور على أخيه أحمد الكموني الصحفـــي المشـــهور . وسعاد المصرفية المرموقة مديرة إدارة القروض . تزوجت ومات زوجها فامتنعت عن الزواج خوفاً من إعادة التجربة لأنها انتـــهت بالمرارة . غير أنها وجدت أن شبابها على وشك أن يدفن في جب الشيخوخة العميق . وليست هي قديسة تهب نفسها لأولادها مثلمـــا فعلت أمها بعد غياب الكموني الكبير عنها ، فامتعضت من ذلـــك المصير . وقبلت الرجل الذي تقدم إليها أحد طالبي القروض مـــن المصرف ، ومقاول من الأغنياء ، ومتزوج وله أولاد . فليس لديه مرارة من كونها تزوجت من قبل ولها مـــن زواجـــها الأول أولاد ثلاثة . أدركت سعاد أنها صفقة يعقدها معـــها المقـــاول حســـونة

المنيري ، فإذا ما تمت الصفقة فسوف يطلقها ، لكن سعاد تريد أن تتذوق الرجل بعد أن امتنعت عن الرجال طويلاً ولا يمكن أن تخطو على أعتاب الشيخوخة وليس لها ذكريات إلا مع زوجها الأول العليل ، ولكن ذكرياتها معه باهتة مريرة لأن الرجل كان سقيماً فلم ترتو منه ارتواء كاملاً .

" وإذا تزوجك يا سعاد وهرب مثل أبيك . أليس في ذلك مأساة تصنعيها لنفسك ؟ .. أو مات مثل المرحوم زوجك الأول . الأمر وارد ، لكن سوف أضع من القيود ما يحول دون أن يطلقني وإلا كانت بيننا المحاكم وأكسب القضية في النهاية بفضل ما لدي من وثائق . وتؤول إلى أموال كثيرة تجعلني اشتري أي رجل فيما بعد . ولو شاب في الثلاثين من العمر . ولن أصرف له القرض إلا إذا تم الزواج .. وسوف تكبله القيود المصرفية حتى أضمن إتمام الصفقة وإلا تضيع نقود المصرف هدراً وأضيع أنا معها ."

فوجئ أحمد الكموني بما قالته سعاد الكموني أن الرجل كبير في السن ومتزوج وله أولاد . ولكنها اشترطت عليه أن يكون الزواج معلناً وأن عليه لو خذلها أن يدفع مبالغ طائلة بعد الطلاق . كذلك لن يُعقد القران إلا إذا اشترى لها شقة فاخرة على النيل وكان معها أولادها . سألت الأم : ومن أجل ماذا سوف يتزوجك ؟ .. قالت : لا تثبطي همتي ولا تغرقيني في الإحباط . سأتوقف عن السير في

أسلوب عادل . خلاص . كفاني رهبنة . ولست مثلك أصبر حتى أكل من الصبر . إذا كنت تريدين أن يسير أحمد وراء أسلوب عادل فلا بأس . أما أنا فقد زهقت .

جاء المقاول حسونة المنيري يطلب يد ربة الصون والعفاف السيدة سعاد الكموني ، وحجبت عنه أولادها . ووجد أحمد أن المقاول لا يزال يحتفظ بشبابه . ولكنه أقل تعليماً من أخته . وكاد يحسده على الشباب والرجولة ، غير أن سعاد لا تقل عنه شباباً ولو أنها دخلت أعتاب السادسة والأربعين . ولكن هل يتزوج أحمد وهو في الثامنة والأربعين .. ومن تكون تلك التي تقبل به ؟ . ضحك وهو يقول : أخت المقاول !! ..

انشغل أحمد بفرح أخته ، وكان عليه أن يواصل البحث في سيرة أبيه نصرت الكموني . وانتقلت سعاد إلى الشقة الجديدة مع أولادها الثلاثة ، وتعمدت أن تلتقي بزوجها دون حضورهم . ووفي المقاول بكل التزاماته وملكها شقة على النيل ، واستمر على اتصال بها بعد الزواج . لم يطلقها لما تعثر القرض في المصروف لعدم كفاية الضمانات . وقال لها : أتفعلين بي ذلك يا بنت الكموني ؟ .. قالت : لست وحدي في إدارة القروض .. هناك مئات يفحصون الصفقة وأجمعوا على أن ضماناتك غير كافية . ثم سألت : أكنت تتزوجني من أجل أن أمرر لك أوراق القرض ؟

قال : مستحيل .. لا .. لا .. . رمقته كأنها تقول له :

– يا كاذب .

غير أنه وعدها أن يعطي المصرف الضمانات الكافية حتى يحصل على القرض .

قالت سعاد : ولم تقترض من المصرف . أقترض من الناس . بع لهم أحلامك وأنجزها فعلاً حتى لا تتعرض للمسئولية وسوف يكون الناس خير معاون لك .

قال : أموال الناس لا تكفي . لابد من سيولة كبيرة حتى أنشئ شليهات الساحل الشمالي وأؤسس القرية المنتظرة .

قالت : خذ من الناس مقدماً . وخذ من المصرف بمقدار الأرض التي اشتريتها في الساحل الشمالي .. وسوف تجد أن الصفقة رابحة .

لم تصدق سعاد أنها حملت في هذه السن المتأخرة . من العادة ألا تحمل المرأة بعد سن الرابعة والأربعين . ولكن هناك حالات تحمل فيها حتى سن الخمسين . وهاهي تدخل في هذه الحالات . ولم تعلن سعاد حسونة المنيري بحملها حتى لا يهرب مثل أبيها . ولكنه ليس مثل أبيها لقد تزوج من قبل ولديه ثلاثة أولاد مثلها ،

وثروته – كما يدعي – تكفي عشرة ، بيد أنها تعرف أن الثروة ليست له لأنه لم يقدم ما يثبت ذلك للمصرف .

فتحت باب شقتها يوماً ، لترى امرأة عجوز تجاوزت السادسة والخمسين ، ومعها امرأة قوية بدينة كأنما هي حارس خاص بها . وسألتها : هل أنت سعاد الكموني ؟

قالت : نعم .

قالت المرأة بفضول : هل تزوجت حسونة المنيري ؟ ..

قالت وهي تتماسك : تزوجنا على سنة الله ورسوله . والشرع يبيح له الزواج باثنتين أو ثلاث أو رباع .

حاولت المرأة البدينة القوية أن تنقض على سعاد وأن تتقدم منها وتضربها ، غير أن المرأة العجوز منعتها ، وهي تسأل : وعلى ماذا تزوجك ؟ .. لست صغيرة السن . ولا الشباب ينطق بآياته على وجهك . وإن كنت جميلة حقاً لكن شبابك سوف يزوي بعد قليل .

قالت سعاد كأنما تتحداها : تزوجني ليتمكن من الحصول على قرض . وقبلت لأني لم أتزوج منذ مدة طويلة .

سألت المرأة : لك أولاد .. أليس كذلك ؟ ..

ثم سألت كأنما لا يعنيها أن تجيب عن سؤالها السابق : وهل صرف القرض ؟ ..

قالت سعاد كأنما تستفزها : لا يزال البحث جارياً .

سألت المرأة : وكيف تقبلين أن يكون زواجك صفقة يا امرأة ؟ ..

قالت سعاد وهي ترفع عينيها مستغربة : وما في ذلك ؟ .. الحياة نفسها صفقة يا سيدتي . يمكن أن تكون خاسرة .. ويمكن أن تكون رابحة .. هل ستستمرين في الكلام عند باب الشقة أم تدخلين أنت وحارسك الخاص ؟ ..

دخلت المرأة لتشاهد أثاث البيت رائعاً . يدل على ذوق رفيع . والمرأة البدينة القوية تتنمر تريد أن تفتك بسعاد والمرأة العجوز تمنعها . غير أن سعاد منتبهة لها وتتباعد عنهما . وجلسن في صدر الصالة في ركن الاستقبال .

قالت المرأة كأنما تظن أنها تثير غضبها : ألا تعرفين أن له ثلاث أولاد ؟ ..

قالت سعاد كأنما الأمر لا يعنيها : أعرف . وسيكون مني ولد .. ولي ثلاث أولاد من زوجي الأول .

انزعجت المرأة وقالت : ألا تعرفين أن كل ثروته هي ثروتي ؟ ..

قالت سعاد : ومن لا يعرف . لذلك رفضت إدارة القـــروض أن تعطيه القرض لأن ما قدمه من مستندات تدل على أنـــه لا يملـــك شيئاً إلا قطعة الأرض التي يريد أن يبني عليها الشاليهات .

قالت المرأة : ألا يدل ذلك على أنه ينصب عليك .

كانت المرأة تتكلم . والمرأة البدينة تتلمظ بفكها ، كأنـــها لبـــؤة تريد أن تفتك بفريسة . وسعاد تحاول أن تهدئ من أعصابها ، لقـد تهيأت ذلك الموقف في الأيام الماضية ، وهاهو يتحقق .

سألت سعاد : ماذا تريدين أن تصلي إليه ؟ ..

قالت المرأة : أريد أن تتركيه لأن لا فائدة منه .

قالت سعاد : أنا لا أسعى وراء فائدة . الفائدة حرام يا مـــدام .. وأنا أعمل في مصرف وأعرف ذلك . ولك أن تعرفي .

قالت المرأة : أتسخرين مني ؟ ..

قالت سعاد بتبرم : أنا لا أسخر منك . أريد فقط أن أقـول أن لا فائدة من هجومك عليّ . واتركيني أعيش في سلام مثلما تعيشـــين أنت في سلام . ثم أنت تقولين إن الأموال كلها خاصة بك فمـــاذا يزعجك ؟ .. أن أشاركك فيه ؟ .. وماذا تـــأخذين منـــه الآن ؟ .. ربما أكون أنا أكثر فائدة منك . ألا تضحين من أجل الرجل ؟ ..

تنطق المرأة البدينة متلمظة : اتركيني عليها .. أربيها لك .

تقول سعاد بهدوء : ومن الذي سيسمح لك يا امرأة .. أتظنيـــن أنني لا قوة لدي . حاولي هكذا .. وسوف تجدين نفســك تسـفين التراب .

كانت سعاد تجلس إلى مقعد واسع كبير بجانبها كرسي تمســك به . أو تلمسه . حتى إذا ما بدر من المرأة البدينة غدرا هاجمتــها بالكرسي وتضربها به . سوف تشل حركتها لدقائق ثــم تســتنجد بالجيران وبالشرطة إن أمكن .

قالت المرأة يائسة : إذن لا فائدة .

قالت سعاد بتحد : إذا كان باستطاعتك أن تجعليه يطلقني فـــلا بأس .

" لا أهمية للرجل في حياتي . أبي تخلى عنا في السنين الأولــى من حياتنا . وقادت أمي المركب المتهالك فـــي بحـــار الحيــاة الصاخبة . ووصلت بنا إلى الطب والآداب والتجارة . فهل أنا لــن أستطيع أن أحمل ابني فوق كتفي واجعله أعظم رجل في الدنيـــا . كذلك أولادي من زوجي الأول ؟ .. "

الفصل الحادي عشر

لم تتدخل أم عادل في زواج ابنتها سعاد الكموني كثيراً ، فقـــد كانت الفتاة حريصة على اتخاذ قراراتها دون الرجوع إلى أحــد ، وإثبات حقوقها بمفردها ، غير أن أم عادل عافت التدخل بســـبب أنها رفضت من البداية أن يكون الزوج متزوجـــاً ولديـــه أولاد ، وتجاهلت أن ابنتها لها أولاد هي الأخرى . بيد أن هذا المبدأ قبلتـه ابنتها لأنها لم تكن تحلم أن يتزوجها رجل غير متزوج . أو مطلق أو أرمل ليس له أولاد . وكذلك كان رأي أخيها عادل الذي تعلـــل بمشاكل المستشفى في أسوان ، وكثرة العمليات والمرضى بعـد أن اشتهر عقب زرع كلية والد الدكتور عامر زميله في المستشـــفى ، ونجحت العملية وأصبح المريض صحيحـــاً . ولـــم يختلـف رأي الصحفي أحمد الكموني في ذلك الصدد ، لذلك وجدت سعاد نفســها كأنها تعيش في جزيرة نائية لا يزورها فيها غير زوجها الذي أخذ يتململ منها بسبب أنها لا تزحزح أوراق القرض الذي طلبه مـــن المصرف قبل الزواج . وكانت حجتها أن الضمانات كلـــها باســم زوجه الأولى ، وأن عليه أن يقدم ضمانـــات شـــخصية باســمه . واستغربت أن يكون زوجها بهذه الأمانة فلم يبتلع ما يصل إلى يده من أرباح باسم زوجته ويحركها من حسابها إلى حسابه ، فتصبـــح

ذمته المالية متضخمة من شركة المقاولات الخاصة بزوجه ، حينئذ يتمكن أن يحصل على القرض .

التفت أحمد إلى البحث الذي بدأه ، وهو سيرة أبيه الغائب . فسافر إلى الأقصر ، في مهمة صحفية متخفية ليرى استتباب الأمن في الأقصر ، بعد مرور سنوات ، حيث تمكن الإرهاب يوماً من قتل نفر من السياح الأبرياء . ثم سافر إلى أسوان للنظر فيما تم في قضية أحداث الكشح . وكان يقصد من وراء ذلك أن يقابل أم الدكتور نصير بعد أن يفرغ من تغطية أحداث الكشح . وقابل الزوجة الثانية الظاهرة بعد أمه ، فأمه دخل بها أبوه في الخمسينات ، وهذه المرأة دخل بها في بداية الستينات .

قابل هناك عزيزة بنت زوجة أبيه ، واستمعت إليه في حضور أخته زينب وأخيه الدكتور نصير . سأل أحمد قائلاً :

– الحقيقة أجري بحثاً عن أبي . أجريت الجزء الأول منه مع أمي . وذلك منذ زواجها منه إلى أن غادرها . سألتها في آخر اللقاء عن سبب مغادرته منزل الزوجية . قالت أمي : إنه ربما فقد ذاكرته . أو مات . أو يغير في الزوجات . أو أصيب بهوس أفقده العودة إلى بيته . بطبيعة الحال فقد الذاكرة وارد وكذلك الهوس . أما الموت فواضح أنه لم يمت بدليل أنه

تزوج منك وكان يعرف اسمه تماماً . وتـــزوج بـــك . فـــهل شعرت وأنت في بداية حياتك معه أنه مهووس أو فاقد الذاكـرة أو ذكر لك شيئاً عن الماضي .

قالت الأم : لقد عرفته معاوناً لأبي . تاجر الجملة . وكان يأخذ بضاعته على دراجة ويقوم بتوزيعها على القرى والنجـــوع فـــي داخل محافظة أسوان . خاصة تلك البقالات العشوائية التي كـــانت تبيع المواد الغذائية لعمال السد العالي . وطلبني للزواج واســـتمر يعمل مع أبي . كانت أمي قد ماتت ، وتكفل بي أبي ، فلما تقـــدم الكموني له طالباً أن يتزوجني ، لم يرفض ، وتفرغ أبـــي لمهمـــة جديدة أختلقها فجأة ، وهي الزواج مـــن الأرامـــل والمطلقـــات . واكتشفتُ بعد وفاته أن النساء أخذن قسطاً وافراً من ثروته . حتـــى أصبحت على الحديدة . غير أن زوجي تمكن مـــن أن يقـــترض قرضاً حسناً من جار لنا .. مما جعل التجارة تستمر . وكنت قـــد أنجبت منه نصيراً وكذلك زينب . ولم أكن اعـــرف شـــيئاً عـــن الخسارة والثروة الضائعة . ولما فر الكموني إلى غـــير رجعـــة . أوصاني عبد البديع التاجر المقـــرض أن اطلـــب الطـــلاق أمـــام المحكمة ، حتى يتمكن من أن يتزوجني ويرعى طفليّ فقد كان أبي عزيزاً عليه ، ولا يريد لابنته أن تتدهور أحوالها من بعده . وفعلاً

طلبت الطلاق ، وبعد شهور العدة تزوجني عبد البديع ، وأنجبت منه عزيزة .

سأل أحمد دون أن يلتفت إلى عزيزة : كنت أسأل عن مظاهر دلت على أن نصرت الكموني فقد الذاكرة أو كان مهووساً .

قالت أم نصير : الحقيقة كان يعرف جيداً اسمه ، ولعله كان يعرف ماضيه ، ولكنه لم يكن يذكر منه شيئاً ، لم يكن يتكلم عنه . حتى بعد أن تزوجته كان صامتاً لا يتكلم . ولم يكن من عاداته مثلاً أن يداعبني أو يداعب طفليه . بل لم يكن يخلق حديثاً بيني وبينه . إذا أعددت المائدة قام ليأكل . وإذا أكل نام . وإذا استوفى راحته نهض ليذهب إلى المحل . دكان أبي . ولم يكن يأتي بتصرفات تدل على الهوس إنما كان يبدو كأنه عقل متحرك .

سأل أحمد : ألم يحك لك عنه عبد البديع زوجك الثاني بعد الزواج عن تصرفاته ؟ .. ألم يكن يعرفه ؟ ..

قالت أم نصير : نعم .. كان يعرفه . لكنه لم يذمه يوماً أو يمدحه .. كان يذكره بالخير خاصة حينما طالبه بالقرض لينقذ تجارة أبي ويتمكن من تصريف أحوال المتجر المالية .

سأل أحمد : وما كان في ظنك سبب اختفائه ؟ ..

قالت أم نصير : ربما يكون السبب في ذلك الضائقة المالية التي كنا نعاني منها . لم يستطع أن يسوي ديون أبي التي تراكمت

بسبب تعدد زوجاته . وشعر أن المسئولية ثقيلة عليه فتركها علـــى كاهلي وغادر أسوان . ومات بعد مغادرته أبي ليتركني في جحيــم من الديون والمطالبات . هناك من الرجال من يبدو متماسكاً ، فإذا واجهته مشاكل هرب منها . لعل الكموني كان واحداً من هـــؤلاء الرجال .

سأل أحمد : هل حكى لك جزءاً مـــن ماضيـــه أو آمالـــه فـــي المستقبل ؟ ..

قالت أم نصير : أبداً . لم يكن يقص على شيئاً ولا حتـــى مـــا يحدث له وهو معي .. ولم اكن أعرف بديـــون أبـــي إلا بعـــد أن مات . وحتى حينما اقترض من عبد البديع لتصريف أمور المتجر المالية لم يذكر شيئاً . إلا أن عبد البديع نفسه هو الذي حكى لي . وقد تزوجني الرجل رأفة بي وبولديّ .

سأل أحمد : هل كان عبد البديع متزوجاً ؟

قالت أن نصير : أبداً إذ كان من المعرضين عـــن الـــزواج . وأقاربه كثيرون . شاركوني في متجره بعد وفاته كأنهم نمل . لكن كان لي الثمن وكان لابنتي النصف طبقاً للشريعة الإسلامية . ولـــم يهتموا بيتمها وتدخلوا في التجارة . ونصير كان قد تخرج من كلية الطب . أنفق عليه عبد البديع من حر ماله كما لـــو كـــان ابنـــه . وكذلك انفق على زينب وابنته عزيزة .

فشل أحمد في استنباط شئ عن أبيه الغائب . وماذا سيفيدك يـــا سيد أحمد لو عرفت شيئاً عنه . ربما عرفت مكانه أو الأماكن التي كان يتردد عليها فأذهب إليها وجده هناك . ربما يكون في ضائقـــة مالية فأنقذه . وربما اعرف مكانـــه فـــأوده . وأعـــرف ظـــروف إعراضه عن عائلاته . جميل !! .. ولكنك لم تصل إلى شئ

التفت أحمد ليجد عزيزة تستمع إلى أمها ، ونصـــــير وزينـــب ينصتان بتمعن .

سأل أحمد عزيزة : هل تعملين يا آنسة عزيزة ؟ ..

قال الدكتور نصير : عزيزة تخرجت من كلية الحقوق جامعـــة أسيوط . وتنتظر أن تجد لها وظيفة في الحكومة . غير أنه قيل لي إن الحكومة أصبحت لا تعين أحداً الآن إلا القليل .

قال أحمد : ولم لا تعملين في الصحافة ؟ .. ألا تســـتطيعين أن تكتبي خبراً مثلاً ؟ ..

قالت عزيزة مرتبكة : أستطيع .

قال أحمد : يمكن أن أعينك تحت التمرين في الجريدة .

سألت عزيزة : أين ؟ ..

قال أحمد : في مصر .

قالت عزيزة : وكيف أعيش في مصر ؟ ..

أسهم أحمد ثم قال : مشكلة .ما رأيك لو اشتغلت بمكتب الجريدة في أسوان .

قالت عزيزة : هذا مقبول فعلاً .

الفصل الثاني عشر

قد يكون السبب في أن أخاه الدكتور لم يتزوج حتى الآن هـــــو انشغاله بالعلم والعمل المرهق . فما هي حجته هو وقد انتهى مـــن دراساته منذ سنوات بعيدة . وشارف على الخمسين إلا قليلا ومـــا هي عقدته التي منعته من الزواج ، هل هي عقدة الكمونــــي ؟ .. وما هي عقدة الكموني يا صحفي ؟ .. العقدة هي الخوف من تــرك الأطفال وعدم المسئولية عن الأسرة ؟ .. وهل كنـــت تعــرف أن الكموني قد ترك عائلة بعد عائلة حتى تتكون لديك تلك العقدة ؟ .. لا .. إنما هو الإحساس فقط أنه ترك العائلة دون عائل وأخشى أن افعل مثله . وإذا كنت تخاف أن تفعل ذلك فهل ستفعله ؟ .. ربمـــا الأمر عملية تأجيل مستمر حتى فات الزمن . والآن أنت مشـــغول بالبحث عن الكموني . وسوف يضيع الزمن في هذا البحث مثلمـــا ضاع منك من قبل !! ..

دخل إلى قاعة الصحفيين في الجريدة الصباحية ، يتجول بعينيه باحثا عن أخته علا الكموني . لم يرها منذ مدة ولـــم تـــوده ولـــم تتصل به كأنها لم تصدق مسألة الأخوة . كأن الكموني والدها ليس

الكموني والده . وشغله عن الاتصال بها زيجة أخته سعاد .
ووجدها جالسة بين عدد من الصحفيات تثرثر . وقد بدا أنها حملت من جديد .فاستغرب درجة ركض الزمن السريع .

سألها وهو يصافحها : هل تذكريني ؟

قالت : ومن ينسى أخاه ؟ ..

صافحته بحرارة وهي تنهض بتثاقل . وهو يحاول أن يثنيها عن ذلك . وتتفرق الصحفيات حتى تتمكن من الثرثرة مع القادم الجديد إليها إلا واحدة . بقيت في مكانها تتأمل القادم كأنها تعرفه من صوره التي تنشرها جريدته فيما يخص الحوادث .

قال : آليت على نفسي أن اعرف لغز الكموني ؟ .. وأين يقيم لأتصل به ؟ .. لذلك آليت على نفسي أن اكتب قصته أولاً من مصادرها وأناديه أن يظهر لو كان لا يزال على قيد الحياة . وقد التقيت بأمي واستجوبتها عن حياته معها . وأجريت تحقيقاً مع أم الدكتور نصير الكموني في أسوان ولعلك التقيت به هناك . والآن أمامي أن أقابل والدتك فهل تسمحين لي ؟ ..

قالت : وفيم تفيدك والدتي ؟ ..

قال : سوف أعرفها بقصص النساء اللاتي سبقنها وأسألها عما يكون لديها من أسرار لا نعلمها . ربما يكون قد أفشى لها سراً

يقودنا إليه أو يلقي الضوء على ذلك الرجل الذي هجرنا ونعرف أسباب هجرته .

قالت علا : لقد تزوجت من مقدم في الشرطة . واستقللت بعيداً عن أمي وأختيّ . في شقة بعيدة عنهن . هن يعشن في مصر الجديدة وأنا أعيش في العباسية في شقة المقدم .

سألها أحمد وأشار إلى الحمل : حدث ذلك بعد أن التقينا في أسوان .

ضحكت وقالت : بعد أن التقينا . وسوف يكون ترتيبه الرابع .

سألها : متى تزوجت ؟ ..

قالت : منذ زمن بعيد . كنت أتحرى خبراً عن جريمة في قسم قصر النيل . والتقيت بالمقدم كان وقتها برتبة نقيب . ويبدو أنه لم يتردد في الزواج مني في الحال . إذ عرف عنواني وقابل أمي وتزوجنا . زواجنا يعد أسرع زواج في العالم .. لو شئت أن تسميه . وأنجبت منه ثلاثة وهاهو الرابع في الطريق .

سأل أحمد : هل رويت لأمك عن لقائك مع أخوين لك في أسوان .. وأخ ثالث .. كلهم من نصرت أمين الكموني .

قالت : وهل ذلك الأمر يبقى سراً ؟ .. وهل تظن أن امرأة يمكنها أن تكتم سراً في صدرها ؟ ..

قال أحمد : متى أقابل والدتك ؟ ..

قالت علا : الآن .. لو أحببت .. مضى يومان لم أر فيهما أمي .. فلا بأس أن أراها اليوم .

التقى أحمد بأم علا . لم يكن يظن أنها بهذه الأبهة وأن شـــقتها بهذه الفخامة . فلم هرب منها نصرت الكموني ؟ .. وكيف ســـقط نصرت الكموني على ذلك العز . وكيف ترك ذلك كله وما أسـباب تركه ؟ .. لم يصدق المرأة وهي تقول : أنت تشبه أباك كثيراً .

قال : هل هذا معقول ؟ ..

قالت : أليس لديكم صورة له ؟ ..

قال : لم نكن – كما يبدو – نعرف ذلك الترف .

قالت المرأة : أنا عندي الكثير لكن بحثت عنها ولـــم أجدهـــا ، ويبدو أنها اختفت بقدرة قادر ، أو لعلـــي وضعتـــها فـــي مكـــان ونسيته . قال : كنت أود أن أراها ، فهل إذا وجدتها تسمحين لـــي أن أراها ؟ ..

قالت : من الآن فصاعداً ســوف أبحــث عنــها وإذا وجدتــها سأتصل بك .

سأل أحمد : كيف التقيت به ؟

قالت : التقيت به في أواخر الستينات . جاء ليعمل فـــي ذلـــك الكازينو الذي أملكه وأديره .

سأل أحمد : ماذا كان يعمل ؟ ..

قالت : أنت تعرف ذلك الكازينو هو كازينو ومطعم في نفس الوقت . وهو لا يلبي طلبات زبائن يحضرون إلى المطعم . ويلبي أيضاً طلبات الزبائن الذين يبقون في بيوتهم . كان نصرت الكموني أحد هؤلاء العمال الذين يحملون إلى الزبائن طلباتهم . رجل عفي استرعى نظري من النظرة الأولى .. أنيق نظيف قليل الكلام . ولم اكن أنا بالمرأة التي تجري وراء رجل من النظرة الأولى . إنما استغرق ذلك وقتاً طويلاً حتى تمكن مني وتمكنت منه . كنت أدير المطعم والكازينو باقتدار . ولم اكن تزوجت بعد . ولما فكرت في الزواج لم أجد غير نصرت الكموني . لم أهتم بتعليقات صديقاتي ووصمهن صاحبة العمل التي تتزوج عاملاً لديها . وخضت التجربة رغم أنفي .. لأني كنت قد أحببت نصرت الكموني .. ربما لأنه متباعد .. غير متزلف .. قليل الكلام . مترفع . يؤدي واجبه على خير وجه .

سأل أحمد : حينما جاء ليعمل لديك ، فهل لاحظت أنه شارد الذهن . يبدو مثقلاً بأعباء من الماضي .

قالت : أنا أفهمك على اعتبار أنه ترك عائلتين كما قالت لي علا . عائلة في الجيزة . وعائلة في أسوان . كما هو ظاهر حتى الآن . لكن أقول لك إنه لم يكن يبدو عليه شيء . كان متزناً . ولا

يبدو مثلاً أن ضميره يقلقه لأنه ترك العائلتين وراءه . ولم ألحظ أنه يفكر بألم . كان يبدو صافي البال . ولكنه لم يكن أبله .. يبدو كرجل يؤدي رسالة معينة .

قاطعها أحمد : ولا يعنيه نتائج أعماله .. فما هي تلك الرسالة في نظرك ؟ ..

قالت : أن يؤدي عمله الذي رسمه لنفسه . ولا أهمية للآخرين .

سألها أحمد : وماذا كانت علاقاته ببناته ؟ ..

قالت أم علا : الحقيقة أنه تزوجني بشرط ألا يغير وظيفته . استمر ينقل إلى الزبائن طلباتهم طول النهار وحتى منتصف الليل . وكان من النادر ما يرى بناته لأن العمل كان أهم لديه من أي شيء . لا تراه إلا وهو يعمل .

سألها أحمد : ألم تحدث حوادث معينة دلت على أنه تزوج من قبلك بأكثر من مرة ؟ .. أو حوادث كشفت لك عن ماضيه ؟ ..

قالت أم علا : أبداً .

قال أحمد : أخي الدكتور عادل قال يوماً إنه كان إذا رُزق بالبنت يغادر العائلة على الفور .. وقد اتضح لي أنه رزق بثلاث بنات منك ولم يغادر .. فما رأيك ؟ ..

قالت أم علا : أبداً .. لم يعلق في المرة الأولى ولا الثانيـــة ولا الثالثة على أني أنجبت بنتاً .

قال أحمد : إذن بمـــا تعلليـــن هجرتـــه لعائلتـــه الثالثـــة فـــي اعتقادك ؟ ..

قالت أم علا : لا أجد تعليلاً . فجأة اختفى .

قال أحمد ضاحكاً : ليظهر في أسيوط . وينجب هنـــاك الشـــيخ عبد الحميد وأختيه .

قالت أم علا : أنت إذن تتبع أثره ؟ ..

قال أحمد : أبداً .. إنما يحدث اكتشاف الأثر صدفة .

الفصل الثالث عشر

لم يعد في إمكان الدكتور عادل أن يصبر اكثر مـــن الـــلازم . شاغلته الممرضة أماني حتى ضعفت مقاومته . لم يصادف من قبل أنثى مثلها . كانت هناك معجبات كثيرات به لكن تباعده جعلـــهن يزهدن فيه . أما هذه الممرضة فقد شاغلته لدرجة أنــــه لـــم يعــد يستطيع أن يفك من أسرها . حاول مرة أن يقبلها غير أنها صدته . وقالت : إلا هذا العمل فيجب أن يكون في الحلال . سأل كأنما لـــم يفهم : وما هو الحلال ؟ .. قالت : الزواج . عاد يســـأل : وهـــل ستستمرين في العمل ؟ .. قالت : لا .. إذا أردت . قال : ســـوف يكون القيل والقال حولنا إذا تزوج طبيب ممرضة . قـــالت : أنـــا أعرف . ولا مانع أن أبقى في البيت .

أخذها ووالداها معها ، وأخوتها إلى القـــاهرة ، ليحتفـــل بعقـــد القران بين أمه وأخته وأخيه . والتقى لأول مـــــرة بـــزوج أختـــه المقاول حسونة المنيري . لم يستنكر أنه تجاوز الخمسين ، لأنـــــه أيضا يتزوج وهو يتعدى الخمسين . ولكنه استنكر أن يكـــون قـــد سبق له الزواج من قبل . وما المانع يا دكتـــور مـــادامت أختـــك تزوجت من قبل ولديها أطفال ؟ .. غير أنـــــه لـــم يســـتمر فـــي التساؤلات ومشاغلة نفسه . والتفت إلى مشاغل الحفلة التي جـــرت مراسيمها في ناد .

لم يدقق معه والدا أماني لا في الشبكة ولا المهر بل كانا مطيعين لأماني إذا وافقت وافقا وإذا رفضت رفضا . ولم ينتقدا زواجها من رجل يكبرها في العمر لأنها تقدمت – هي الأخرى في السن دون أن تتزوج . ومنعهما من الاعتراض أن أماني تعمل تحت أوامر الدكتور عادل . ولو أن العائلة جميعها لم تصرح بذلك إنما ادعت أنه التقى بها في أسوان وأعجب بها وطلبها للزواج ولم يكن احمد أخوه التقى بها وهو يجري تحقيقاته في أسوان مع أخيه .

عاد أهل أماني إلى أسوان بعد انتهاء الزفاف . وذهب عادل وأماني إلى الإسكندرية ليقضيا شهر عسل هناك .

سألها : أتعرفين أن هذه أول مرة آتي فيها إلى الإسكندرية ؟ ..

–كيف .. ألست من عائلة ميسورة ؟ ..

– لا أنا من عائلة متوسطة الحال . كافحت أمي وكافحنا معها .

– ألهذا لم تكن في هيئة التدريس بإحدى الجامعات بكليات الطب ؟ ..

– ليس هذا هو السبب . إنما السبب أنني لم ألتحق بهيئة التدريس من البداية .. أولاد الأطباء استولوا على المراكز الرئيسية لكني لم أيأس وتقدمت للدراسات العليا رغم مشاغلي في العمل .

– ألم يكن والدك طبيب مثلاً ؟ ..

– لا .. لم يكن .

– إذن .. ماذا كان يعمل ؟ ..

– لا أعرف .. لقد تركنا منذ صغري ولا نعلم عنه شيئاً .

– كأنك قضيت طفولة تعيسة .

– استطاعت أمي أن تبعث الأمل في أنفسنا . وأن تحثنا على تحصيل العلم والعمل بجد واجتهاد .

– وما السبب في ترك والدك لعائلتك ؟ ..

– لا نعرف السبب حتى الآن . ربما نلتقي به يوماً ويقول لنا الحقيقة . على العموم لا أهمية لذلك ما دام الإنسان يشق طريقه واصبح علماً .

– أتريد أن تقول عن الإنسان يمكن أن يكون شيئاً دون أبويه .

– لا شك أن الوالدين يساعدان لكن ليس وجودهما أمراً أساسياً في حياة الإنسان .

– إن الطموح هو الذي يدفع الإنسان إلى الترقي .

– لكن على الأقل واحداً منهما يكفي ليبذر بذرة الطموح في الإنسان .

– أوافقك .. فقد غرست فينا أمي تلك البذرة . ولكن تمكن مثلاً الشيخ عبد الحميد أخي من أبي . أن يشق طريقه في الحياة رغم

أن أبانا هجر عائلته – هو الآخر – وماتت أم الشيخ وهـــي فـــي مقتبل العمر .

– أخوك .. تقول أخاك .

– نعم فقد اكتشفنا أن أبي كان له في كل محافظـــة زوجـــة . اكتشفنا حتى الآن أربع زوجات .

– إذن .. قد يكون ذلك هو سبب الهجر . إنه يترك الواحـــدة ليتزوج الأخرى .

– ذلك لغز لم نقدر على حله . ولا يجوز أن نظلم الرجـل لأن بين الزيجة والأخرى فترة زمنية مجهولة . فقد يكون هنـــاك مـــا يمنعه من الاستمرار في الزواج مـــن الأولـــى وتـــزوج الثانيـــة بالصدفة .

– من ذلك الذي يترك أولاده صغاراً ويعيش بعيداً عنهم لينعـم بأخرى .

– ربما فقد الذاكرة .. ربما الجنون .. ربما ظروف قاهرة .. الله اعلم . لقد استرسلنا في الحديث عن أبي . ونسينا الحديث عـن أنفسنا .. تعالي إلى أتمتع بك .

الفصل الرابع عشر

وجد الدكتور عادل أماني زوجته الممرضة فـــي المستشــفى ، تسير بعد عودتهما من شهر العسل ، ترتدي الثيـــاب البيضـــاء ، وتباشر عملها .

قبض على يدها بقوة ، وسألها بهمس : ماذا تفعلين هنا ؟ ..

قالت ، وهي تحاول أن تتملص منه : أعمل مثلما تعمل .

قال غاضباً ، وهو يخرج الكلمات بصوت كالفحيح ، ولا يـزال قابضاً بشدة على ذراعها البض : ألم أقل لك إنــك لــن تعملــي . ووافقت ، لذلك تزوجتك .

قالت دون أنْ تجرؤ على النظر إلى عينيـــه الثــاقبتين : لقــد تزوجتني وأنا أعمل . ولا زلت أعمل . وإذا كنت لا تريد للســـادة الأطباء ألا يعرفوا أنك تزوجت من أماني الممرضة ، فلن يعرفــوا يا دكتور .

قال بغضب وهو مقطب الجبين : عودي إلى البيت الآن .

قالت وهي تتملص منه وتمضي مصرة على موقفها :

– لن أعود .

سألها ، وهي لا زالت قريبة منه : ألم أقل لك قبل الزواج لم لم تقدمي استقالتك ، فقلت لي إنك سوف تتغيبين عن العمـــل ويتــم

فصلك منه بسبب الغياب . وبذلك لا يشعر أحد أنك تستقلين مـــن أجلي . وأن مصادفة قيامي بإجازة في وقت تقومين فيه بإجازة .

قالت : حصل .. ولكني عدلت عن رأيي . لا أمـــان لرجـــل . وظيفتي هي سندي في الحياة . ويمكنك أن تنقلني من القســـم بـــل تنقلني إلى مستشفى آخر لو شئت . وسوف أقبل النقل ولن اســتقيل وسأستمر أعمل في المستشفى الآخر .

تركها وهو يحدث نفسه : لعل الكموني صادف من نسائه عـــدم الطاعة ، فترك لهن البيت وهرب . وهل سوف تهرب أنت الآخـــو يا دكتور عادل ؟ .. أتركها تعمل مادام أن أحداً لن يعـــرف أنـــك متزوج منها . أو أنقلها كما قالت لك إلى مستشفى آخر . وإذا تـــم نقلها إلى خارج أسوان فماذا أكون قد جنيت وماذا سوف تفعل يـــا سعادة الدكتور المبجل وهي بعيدة عنك ؟ ..

ووجد الدكتور عادل أن شيئاً لا ينقصه . يجـــد طبيخـــاً فـــي الغداء . ويتناول طعام العشاء إذا طلبه . وينهض من النوم مبكـــراً فيجد الشاي والجبن والمربى والبيض جاهزة كلها .. يشرب القهوة ويدخن السيجارة بعد أن يفطر . ويخرج وحـــده إلـــى المستشـــفى يتدحرج كأنه كتلة من اللحم . ويجد أن أمـــاني قـــد ســـبقته إلـــى المستشفى وباشرت عملها بهمة . لم تقل لأحد أنها تزوجت مديـــر المستشفى . إنما تزوجت رجلاً .. والرجال سترة النساء . حتى إذا

ما حملت لا يظنون أنها حملت سفاحاً . ولم يعلن الدكتور عادل أنه تزوج من أماني . إنما امرأة لا تفارق البيت . وكان مـــن طبعـــه يحب الوحدة قبل الزواج وقلة الأصدقاء . فاستمر على منواله بعـد الزواج . ولم يقبل أن يأتي واحد من الأطباء لتهنئته بـــالزواج ولا حتى أخوه نصير .أنت تحيى يا عادل حياة عجيبة . ربما الكمونـــي كان يحيا هذه الحياة . متفرد مثلك متعال مثلك متباعد مثلك . ولكن كيف تعرف أنه يحيا هذه الحياة ؟ .. إن أحمد أخوك لا يزال يفتش عن حياة الكموني العجيبة التي أورثها لابنه عادل ! .. وهل هنـــاك ما يثبت أننا نرث حياة آبائنا ؟ . هل الأب لو كان بائســـاً يكـــون الابن بائساً مثله ؟ . ألو كان مرحاً فيكون ابنه مرحاً بالتبعيـــة ؟ .. ألو كانت امرأته تعذبه فيكون مثل أبيه يُعـــذب ؟ .. ســـأحاول أن أجرى بحثاً في هذا الصدد . وربما اكتشف مثلاً أن ســـيناريو الأب يرثه الابن من بعده . أي أن ما يمثله الأب على مسرح الحياة لابد أن يمثله الابن من بعده . أنت مخطئ يا سيد عادل أفندي . يوسف وهبي الممثل الفنان لم يكن أبوه ممثلاً ولا فناناً .. فاتن حمامة لـــم تكن والدتها ممثلة أو فنانة لكن ابنتها مثلت وكفت عن التمثيل ولـــم تمض فيه مثلها . ربما مثلاً محمود ياســـين أورث الفـــن لابنتـــه رانيا . أو إسماعيل ياسين أورثه لابنه ياسين لكنه لم يكن ممثـــلاً إنما مخرجاً . يمكن أن نقول إن السيناريوهات تتشابه في بعـــض

الأحيان ويختلف في البعض الآخر . فلم يكن أبي طبيباً مثـــلاً ولا صحفياً ولا حتى شيخ معمم مثل الشيخ عبد الحميد ؟ ..

في ذات يوم تقدمت أماني الممرضة إلــــى مديــر المستشــفى الحكومي طلباً بإعفائها من عملها ، فأنشرح صدر الدكتور عادل ، ووافق على الفور . ولكنه فوجئ في اليوم التالي بعد أن جهزت له المائدة أنها في الطريق إلى العمل . ترتدي المعطف الأبيض وتأخذ حقيبتها السوداء وتمضي . سألها : إلى أين ؟ ..

تقول : إلى العمل الجديد .. مستشفى اســــتثماري ليــس فيــه مريض مصري .. كلهم مرضى أجانب جاءوا للاستشفاء .

امتعض الدكتور عادل ، كان يظن أن أماني رضخـــت لطلبــه وأنها ستصبح سيدة منزل . غير أن آماله تحطمت على صخـــــرة إصرارها على العمل وطموحها الذي لا حدود له . وقال : مـــادام الأمر بعيداً عن المستشفى فلا بأس به . حتى لا يعرف الجميــع أن مدير المستشفى متزوج من ممرضة بالمستشفى .

هاجم الدكتور عادل نفسه ساعة هجوماً عنيفـــاً . أتـــهم نفســه بالعنصرية ثم الطبقية . وأنب نفسه لأنه تزوج ممرضة وهو يترفع عن وظيفة الممرضة . فأماني متعلمة ولديها دبلوم في التمريـــض غير أنه يشعر أنها أقل منه مستوى . يشعر بالترفع ولا يتمكن من

الفكاك من هذا الشعور . ثم يعيد التأنيب على نفسه ، ومن هي المرأة التي كانت ستتزوج رجلا تخطي الخمسين من العمر قدم في الخارج وقدم في القبر . أعقل وتقبل الأمر الواقع .

غير أنه فرح بعد أيام حينما أعلنته أنها سترزق بطفل . ظن الدكتور عادل أن الحمل قد يعوق أماني عن العمل ، غير أنها أصرت أن تذهب إلى عملها ، وبطنها بدأت تتقدمها . ولم يجد بدا من أن يشكوها لأبويها . وقال لوالدها في زيارة له رغم ندرة الزيارات إليهما : إن أماني نكثت بعهدها . عاهدتني ألا تعمل بعد الزواج غير أنها لم تعبأ بعهدها بعد الزواج .

تدخلت الأم التي كان يظن أنها منكسرة ولا تتكلم إلا قليلا : لقد شعرت أماني أنك تحس بالعار من أن تعمل في المستشفى ، فعملت في مستشفى آخر بعيدا عنك حتى تجنبك ما تشعر به من عار .

قال الدكتور مرددا ما قاله : هذا ما لم نتفق عليه .

قالت الأم ، والأب صامت كأنه ترك القيادة للأم : العمل ليس عيبا يا بني .

قال الدكتور عادل وهو يظن أنه يفحمها : ولم لا تعملين أنت الأخرى ؟ ..

ضحك الأب وقال : ذلك لأنها لا تحمل شهادات مثل أمـــاني .
ولا يجوز أن تقضي المرأة أكثر من اثنتي عشرة سنة تتعلم ، ثـــم تقبر هذا التعليم .

قال عادل مجَادلا : أعتقد بعد أن حملت فلا داعي لأن تعمـلى .. وإذا ما ولدت تتفرغ لأبنها تربيه .

قالت الأم فرحة : فلتعمل ، فأنا أربي لها الولد أو البنت .

تدخلت أماني قائلة : أنا أعمل لأن ذلك سلاح في يدي ، فـــإذا فقدت السلاح فكيف يتسنى لي أن أهاجم الفقر إن هاجمني .

قال عادل مناطحا إياها بالحجة : وأين ذهبت .؟ ..

تدخلت الأم وهي ترمق زوجها . لا أمان للرجال .

الفصل الخامس عشر

دخلت عليه مكتبه في الصحيفة ، تذكرها على الفـــور ، تلـــك الصحفية التي كانت تنظر إليه بتمعن ، حينما ذهب إلى زيارة أخته علا ، لتأخذه إلى أمها ، ولم تقم مثل باقي الصحفيات اللاتي كـــن على المائدة مع علا . وقالت له بهدوء : قـــرأت مقـــالاتك عـــن نصرت أمين الكموني ، وأنا عندي الحل للمشكلة التي تحيرك ؟ ..

استغرب كلامها فهو لا يسأل الناس حلا إنما يريـــد أن يقـــرأ الكموني ما كتبه ، فيتحرك من مكمنــه ويظـــهر . وقـــال وهـــو يصافحها ويدعوها للجلوس : أي مشكلة ؟ ..

قالت : المشكلة التي تكتب عنها .. والتي تريد أن تجد لها حـــلا لدى أم الزميلة علا .. ولدى الأمهات الأخريات .

سأل بتوجس : لا أفهم .

قالت وهي مرتبكة لأنه لم يفهمها : مشكلة الأب الذي غـــاب . وتريد أن تعرف سبب غيابه .

سأل : هل أنت أخت لنا لم نكن نعرفها وتعرف مكان نصـــرت أمين الكموني ؟ ..

قالت : وهي تضحك : لا .. لا .. ليس الأمر كذلك . إنما جئت لأضع أمامك تفسيرا لغياب الأب عن عائلته القديمة. أحـــاول أن أصل للسبب .

سأل : وما هو السبب في هجر الأب لعائلة بعد الأخرى وتـرك أبنائه صغارا في كنف الأم ؟

قالت : السبب فسيولوجي بالطبع ؟ ..

قال : لم أفهم .

أجابت : أقصد أن النساء اللاتي كن يلتقين بالكموني ...

قاطعها قائلا : أنت إذن تقرئين ما أكتب ؟ ..

قال : وحكت لي علا الحكاية من طقطق إلى سلام عليكم .

سأل : وما هو التفسير البيولوجي يا سيدتي ؟ ..

قالت : آنسة من فضلك رغم أن سني ثلاثة وثلاثيـــن ســنة . وأقول إنه تفسير فسيولوجي وليس بيولوجيا

قال مرددا : ما هو تفسيرك يا آنستي ؟ ..

قالت : يبدو أن النساء اللاتي كان يتزوجهن الكموني .. والــدك على ما اعتقد .. كن جميعا لديهم الرغبة الجنســية حــادة عاليــة لدرجة أن الكموني كان يهرب منهن .

قال أحمد ساخرا : لا أعتقد أن هذا هو التفسير المقبــول .. لأن أمي لم تتزوج من بعد أن غاب عنها أبي .. وأم الدكتور نصـــــير المقيمة في أسوان تزوجت بـــالفعل لكــن لرعايــة ولديــها مــن الكموني .. والأم الثالثة لم تتزوج .. وهي أم عـــلا ولــم تطلــب

التطليق من المحكمة .. أما الرابعة فقد ماتت .. ولا أعتقد أنها تمارس الجنس في القبر .

وظهرت عليه الجدية حتى يعرف تأثير الفكاهة عليها . غير أن الفتاة تناولت تأثيره دون أن تضحك ، ربما لأنها لم تكتشف النكتة في كلماته الساخرة . ثم ابتسم ليشعرها أنه يلقي نكتة ، غير أنها قالت على الفور : إذن يكون التفسير المنطقي هو العكس . أن الكموني كان فحلا .. بحيث لم يكن تروقه امرأة كثيرا فيهجرها بعد سنوات قليلة .

قال أحمد وهو لا يزال يبتسم : وهذا التفسير غير منطقي أيضا لأن الكموني لم يكن فحلا . كل زوجاته الثلاث قلن إنه كان يستغرق طويلا في عمله من الصباح إلى المساء .. ويعود مهدود الحيل يأكل وينام ؟ .. فمتى يلمسهن ومتى يلتمس الراحة لجسده .. أنت يا آنستي تذكريني بتفسير فرويد للأحلام فقد كان يفسرها تفسيرا جنسيا . بل كان يفسر تصرفاتنا على أساس من الجنس . الولد يحب أمه والبنت تعشق أباها . والحياة كلها تتركز عنده في الجنس .. هل أنت تمارسين الجنس بشدة ؟ ..

أحمر وجه الفتاة ، وقالت محتجة : أنا لا زلت عذراء .. ولم أتزوج بعد .. ولم أمارس الجنس أبدا . ثم أنا لا أسمح لك أن تكلمني بهذه الطريقة .

تمادى أحمد في الخروج عن المـــألوف ، فقـال لـها كأنمـا يصفعها : إذن أنت تشتاقين مثلا لرجل فحل يضمك إليه ؟ ..

نهضت الفتاة وهي تقول : ما هذا الكلام يا أستاذ أحمد .. أنـت تهينني بهذه الطريقة ؟ ..

قال كأنما أحس أنه أذنب في حقها : ما رأيك لو ذهبنـا معـا لتناول الغذاء لنطفئ هذا الجو الذي تكهرب فجأة بسـبب صفاقـة صحفي ؟ ..

وافقت بعد رفض بات ، وبعـد لأي قبلـت . وذهبـت معـه مصطنعة الامتعاض . ولما دخلت معه المطعم ، تطلعـت إليـه كأنها ارتكبت ذنبا ، وسألته أن تغادر ، غير أنه أصر قائلا : أريـد أن أعرف أشياء كثيرة عنك ؟ ..

سألت : مثل ؟ ...

قال : مؤهلاتك .. ثقافتك .. أسرتك ..

سألت : وما السبب ؟ ..

قال : ربما لمحت فيك أشياء أعجبتني .

قالت بعد أن جلست : أنا صحفية عادية وخريجة آداب قسم علم نفس .. أقرأ بنهم .. أسرتي متوسطة الحال .. والـدي توفـي .. وأمي سيدة عجوز .. لي أخوان تزوجا في سن مبكرة ولا يعيشـان

معنا . لم أفارق أمي لأنها عجوز لذلك لم أتــزوج .. هــل هــذا يكفي ؟ ..

قال : وإذا تقدم لك شاب في السابعة والأربعين .. هل ترضيــن به زوجا ؟ ..

قالت : بشرط ألا أفارق أمي .

قال : معنى ذلك أنه سيعيش معكما في منزلكما .

قالت : هو كذلك .

قال : لكن ذلك معناه أن يترك أمه تعيش وحيدة . أخوه تــزوج ويعيش في أسوان .. وأخته تزوجت وتعيش في شقة على النيــل . ولم يبق غيره مع أمه فكيف يتركها ؟ ..

قالت : أقول لك حلا يرضي جميع الأطراف . ثلاثة أيام عنـــد أمي .. وثلاثة أيام عند أمه .. واليوم السابع يغادران البيت إلــــى الإسكندرية .. بور سعيد .. فندق في وسط البلد .

ضحك وهو يقول : هذه تكاليف تعارض نظام الزواج .. نظــام الزواج ابتكر من أجل اختصار المصاريف .. لكن في حالة ذلـــك العريس سيؤثث شقة أمه من جديد . وسيؤثث شقة أمها من جديــد أيضا .. وسوف ينفق على مصاريف الفسح الأسبوعية .. مبـــالغ طائلة هما أولى بها .

قالت : بلا فسح .. فليقضيا يوم الجمعة عند أمه .. والجمعـــة التالية عند أمها .. ولا داعي لإعادة تأثيث الشقة .. يكفي ما فـــي الشقتين من أثاث قديم .

قال أحمد : سيكون ذلك أعجب زواج في التاريخ .

الفصل السادس عشر

كان الوضع مع أحمد ولطيفة بعكس الوضع مع الدكتور عـــادل وأماني . كان أحمد من المنادين بعمـــل المـــرأة ، ولطيفـــة مـــن المناديات أن تبقى في البيت سواءً بيت أهلها أو بيت عدلها .. فلـــم إذن تشتغل ؟ .. اشتغلت حتى أجد قوت يومي . . ولـــــم إذن لـــم تقدمي استقالتك بعد أن تزوجت . أحببت عملي ولا أريد فراقـــه . حقا أنا مترددة لكن لا أقدم على الاستقالة . وهكذا كانت تهدده كـل يوم بأنها سوف تبقى في البيت ولا تفعل . ولم يعد أحمد يهتم لأنــه أدرك أنها مجرد أفكار تراودها ولا تستطيع تنفيذها . ولو أنه بـــدأ يحثها على الاستقالة حينما تركت أمه البيت لتعيش مع ابنتها سـعاد في شقتها المطلة على النيل . وقد دعتها سعاد لتعيش معها لـــتربي لها طفلها .. طفل العجائز كما كانت تسميه سعاد . وانتقلـــت الأم للعيش مع سعاد واعترض أحمد كثيرا على انتقالها ، غـــير أنـــها أصرت ، كان يريد منها أن تبقى حتى لا يضطر إلى البقـــاء فـــي بيت حماته على طول الخط ، ولكن لم يغير عاداته وأصبح ينتقـــل إلى شقة أمه حتّى لا تضيع منه ويظل فيها ولو لمدة ثلاثة أيام كما كان اتفاقه مع لطيفة قبل الزواج .. وجاءت لطيفـــة تخـــبره أنـــها سوف تترك عملها ، لكن في الصباح ارتدت ثيابها ، وسألها : إلى أين ؟ . قالت للعمل ..ألم تتزوجني وأنا أعمل !! ..

سخط أحمد على زوجه المترددة أبدا . تفكر في فكرة وتـــهرع لتنفيذها ثم تتوقف لتنفذ نقيضها . . ربما يكون السبب فـــي هجـــر الكموني زوجاته أنهن كن مترددات . لم يقبـــل الرجـــل المـــرأة المترددة فهجرها . لكن أمه لم تكن مـــترددة . حملـــت مدخراتـــه وافتتحت محلا لا يزال يعمل حتى الآن رغم انتقالها إلى العيش مع سعاد . ولازالت تذهب للإشراف عليه . ووعدت سعاد أن تتفـــرغ لطفلها حينما تنجبه لكنها تحمله معها الآن إذا ما عزمت الذهـــاب إلى المحل . وكانت تترك البيت يومي الخميس والجمعـــة حينمـــا يأتي المقاول زوج سعاد ليبقى معها هذين اليومين . وتذهب للعيش في بيتها . وتقفل عليها حجرتها ولا تحاول الاتصـــال بـــأحد إذا استمرت في البيت ولم تذهب إلى محلـــها . كـــانت لا تســـتلطف لطيفة . كانت لطيفة تكلمها في الصحافة والصحفيين . وكانت هي تكلمها في البقالة والبقالين . لم يكن بينهما لقاء في الحديث لذلـــك اعتزلت لطيفة كما اعتزلتها هي الأخرى . ورغم أنها تركت فـــي المحل شابا أمينا يرعاه في غيابها إلا أنها كـــانت تذهـــب لتتفقـــد الوضع هناك وتقبض الإيرادات أو تأمر بشراء بضـــائع وتعطـــي تكاليفها .

غير أن أحمد استمر يبحث عن الكموني . وذهب إلى الشـــيخ عبد الحميد ليسأله عن بعض مواقف الكموني من الناس الذين كانوا

حواليه . طلب منه أن يحكي له . غير أن عبد الحميد لم يكن يذكر شيئا لأنه كان صغيرا وأحاله على أبي الدكتور عامر ليسأله في أسوان . كان يدرك أن أبا عامر يعرف عنه أكثر منه .

عرض أحمد على أبي عامر ملامح الكموني كما وصفتها أم علا زوجه الثالثة ، غير أنه لم يكن يتذكر شيئا . وكان قد عرضها من قبل على أمه فأخبرته أن الملامح فعلا قريبة من الأصل . ولذلك ذهب إلى أم الدكتور نصير وعرض عليها وصفا للملامح فأقرت بها لذلك لم يرتاب أحمد يوما بأن الكموني أبا لكل هؤلاء الأبناء الذين يعرفهم . لكن ما فائدة أن يعرف الملامح ؟ . إنه فقط يتأكد أن الأب واحد لكل هذه العائلات .

قابل أحمد مرة أخرى الشيخ العجوز أبا عامر ووصف له الملامح مرة أخرى فأقر بالفعل أنها ملامح نصرت أمين الكموني . وإذ به يسأله : فيم تفيد وصف ملامح الكموني يا أستاذ أحمد ، والأصل غائب ؟ .. قال أحمد : نريد فعلا أن نرى الأصل لكن متعذر الوصول إليه .

انضم الشيخ عبد الحميد إليهما ولما عرف الهدف من زيارة أحمد ، قال : يريد الأستاذ أحمد أن تروى له تفاصيل عن علاقة أبي بأمي . وعلاقتك به .

قال الشيخ أبو عامر : الحقيقة أنني لم أكن خليلا للكموني . كان متباعدا .. لكن في اللقاءات القليلة به كان يوصيني بكـــم .. أنــت وأختيك . ولا يلبث كثيرا معي بل لم يكن يمكث كثيرا مع أمـــك . ولكن أمك كانت تعترف أنه كريم معها . يغـــدق عليـــها وعلـــى أولادها . ولا يبخل أبدا عليهم بشيء غير أنه كان مشغولا بعمله . يحب الانطلاق وحده . يؤدي عمله لأحد المتاجر الكبرى . يقـــوم بتوصيل الطلبات إلى الزبائن والمحلات الكبيرة والصغيرة . كـــان المحل الذي يعمل به محلا للبيع بالجملة . وكان هو أحد الموزعين الأكفاء به . وقد قال لي صاحب المحل يوما انه أكثر العاملين لديه أمانة . وأنه لا يكذب أبدا . ويتكلم قليلا . وينفذ الأوامر بدقة ولـــم يخب ظنه فيه يوما .

قال أحمد : ذلك ما سمعته من زوجاته الثلاثة اللاتي عرفتهن . ولا أدري هل له زوجات أخريات .

قال أبو عامر : لا أدري أسباب هجره لعائلاته المختلفة . ربمـا كانت هناك أسباب ضاغطة هي التي جعلته لا يعود إليهم . لكـــن سيظل الأمر لغزا في نظري حتى يظهر الكموني يومـــا ويبـــوح بالسر .

قال أحمد : إنه سر فعلا . ويبدو أنه مشتق من اسمه الكمـون . فالكموني نسبة إلى الكمون وهو الأمر غير الظاهر . كأنـه هـو اللغز كامن .

ضحك الشيخ عبد الحميد وهو يصحح له : ولم لا تقـول إنـه نسبة إلى نبات الكمون .. لعله سمى نفسه بذلك لأنه كان مغرمـا به .

ضحكوا جميعا والدكتور عامر ينضم إليهم .

الفصل السابع عشر

وجد نفسه هو الوحيد الذي يبحث عن أبيه . أخوه الدكتور عادل أنشغل بعروسه الجديدة ، وأخوه الدكتور نصير بدأ يبحث عن عروس . وأخوه الشيخ عبد الحميد انشغل في دراساته العليا في القاهرة ، حينما نقل من أسيوط مؤقتا إلى معهد ديني في القاهرة ، ليكون بجانب الأزهر الشريف . وتزوجت أختاه وانشغلتا بزوجيهما بعد حصولهما على البكالوريوس والليسانس . وكذلك أختا علا تمت خطبتهما وتفرغتا لحياتهما الجديدة ، وهو بعد أن تزوج من لطيفة الصحفية وهدأت الأمور بينهما وصار لا يهمه إن عملت أو أقلعت عن العمل ، لم يجد غير الكموني يشغل تفكيره . فعاد يكتب في صفحة الحوادث قصته مسلسلة تحت اسم : أين الكموني ؟ .. وطلب من القراء أن يدلوه على مكانه لو كانوا يعرفون . ولم يصل إلى ذهن القراء أنه يبحث عن أبيه فقد كان يوقع باسم أحمد أمين . ولم يربط القراء بين اسمه واسم أبيه نصرت أمين الكموني .

سخر منه أحد القراء وقال له إنه يبحث عن أربع رجال لا رجل واحد .وللصدفة البحت تشابهت الأسماء . فظن أنهما رجل واحد . لعل الأول خرج للجهاد في سبيل الوطن ومات في حرب بور سعيد أو لعله استشهد . والثاني عاش في أسوان ولم يخرج

منها ومات مع من ماتوا في سبيل بناء السد العالي . والثالث ربمـا هاجر خارج البلاد تاركا الأم الثرية صاحبة المطعم في القـــاهرة وذلك لكي يكون ندا لها . فشغلته الدنيا عن العودة . أما الرابع فقـد يكون لحق بزوجه التي ماتت حينما عرف أنها توفيت فلم يســتطع صبرا على الحياة دونها فأسلم الروح .

ضحك أحمد من هذا القارئ ، وأكد للقارئ أن الملامـــح التـــي وصفتها الزوجة الثالثة وعرضها على الزوجتين الأولى والثانيـــة تؤكد أن نصرت أمين الكموني هو رجل واحد ، تـــزوج هــؤلاء النساء الثلاث . بل إنه عرض وصف هذه الملامـــح علـــى ذلــك النوبي الطيب فأكد أنها ملامح نصرت أمين الكموني ، ذلك الرجل الذي تزوج أم الشيخ عبد الحميد .

سخر قارئ آخر من أحمد أمين ، وقال له إنه يتكلم عن رجـــل مغرم بالزواج ، له في كل مدينة امرأة أشبه بالبحار له في كـــل ميناء سيدة يلجأ إليها ليتدفأ عندها ، ولعله أكتشف النساء الأربـــع بالصدفة وقد يكون هناك أكثر من امرأة . وعليه أن يعلـــن لأولاد وبنات الكموني أن يحضروا إلى الجريدة في القاهرة فسوف يـأتون زرافات ، وسيتأكد في ذلك الوقت أن الكموني له أولاد أكثر مـــن الذين عثر عليهم بالصدفة ذلك الصحفي الهمام مدير إدارة الحوادث في الصحيفة الغراء .

ولم يستطع أحمد أن ينفي أو يثبت أن للكموني أولادا وبناتا آخرين . إلى أن جاءه خطاب ضخم يقول فيه صاحبه :

" أؤكد لك أن الكموني شخص واحد وليس عدة أشخاص . ولم يكن مغرم بالزواج بل اضطر إلى الزواج صيانة لنفسه . وقد نشأ الكموني في حضن امرأة كانت الوصية عليه وعلى أمواله ، لا يمكن أن تفصلها عنه أو ينفصل عنها . تزوجته لما شب عن الطوق . لم يكن يعرف نساء غيرها عاش في كنفها دهرا ، وهو صغير ولما نضج شعر أن المرأة لا تحبه ، إنما تريد أن تمتلكه ، وتصير جزءا منه ويصير جزءا منها ، تريد أن تسيطر عليه وتسيطر على أمواله ، ولم يكن يعرف أن هذه الضياع التي تحيطه من كل جانب إنما هي ملك له ، وأن هذه المرأة التي تزوجته وصارت جزءا من كيانه هي الوصية عليه .

كانت المرأة ساحرة فاتنة جميلة للغاية ، تأمر بعينيها وجسدها وروحها ، غير أنه كره ذلك الأسر . ولما اكتشف أن في الضياع أولاد يلعبون وبنات يمرحن ، اشتاق أن يكون له ولد أو بنت . غير أن الزوجة الجميلة الفاتنة كانت أرضا غير خصبة فلم تنبت فيها شجرة . وضاق الكموني بهذه المرأة وسحرها وفتنتها ، وهرب من أسرها . ورغم ذلك عاش في تعاليمها لا يفك منها . وسكن في الجيزة في حجرة فوق أحد أسطح عمارة ليست كبيرة .

رغم أن صاحبها يؤجر حجرات فوق سطحها لتزداد أمواله . وكان الكموني لا يهتم بالمال ولا بالجاه ولا بالشهرة ولا بالسلطة . كـان يريد أن ينطلق بعيدا حتى عن الشهوة . وحينما وجد وظيفة مندوب مبيعات للسجائر في شركة ماتوسيان . كان أجمل أيامه أن يـأخذ دراجته ويطوف بها على المحلات يبيعـها السـجائر . ويقبـض أثمانها أو يؤجل القبض إلى يوم آخر حينما يكون لدى العميل قدرة على الدفع . تحول حبه للانطلاق إلى عبادة . لكن حينما رأي سنية الآسرة الجميلة الفاتنة ، عرف أنه سيعوض بـها عـن حكمـت الوصية المستأسدة المستبدة الراغبة في التملك البعيدة عن الحـب ولكن في نفس الوقت عادلة رحيمة ولا يزال يعيش في إسـارها . تزوج من سنية ولكن لم ينـس أن يمـارس الانطـلاق . صـار الانطلاق طبيعة فيه ، يشعر به وهو يركب دراجته ويطوف بـها على الزبائن وأصحاب المحلات والأكشاك والأسـواق الكبـيرة . يشعر بذلك أنه يمارس حريته .

أنجبت سنية عادلا وأحمد وسعادا . وكان الفارق بيـن عـادل وأحمد سنة واحدة والفارق بين أحمد وسعاد سنتان . شعر الكموني وقتها أن سعادته اكتملت ولو أنه كان يواجه الفقر . ولما قارن بين حياته مع حكمت المستبدة الطاغية الثرية وسنية الحنـون الرقيقـة تطلع إلى الحياة مع الأخرى . ولم يفكر في الحياة مع حكمت ولـو

أنه لا يزال يسيز حسب ما علمته ولم يفكر في العودة إليها رغـــم النعيم الدائم والثراء الفاحش لأنه أصبح يهوى الانطلاق . وسنية لا تقف في سبيل انطلاقه . غير أن حكمت الآسرة كانت تبحث عنه . أرسلت أعوانها للبحث عنه في كل المدن . تركوا الحصن الحصين الذي كانت تقيده فيه للذتها ومنعتها وإرضاء شهوة التملـــك لديـــها ليبحثوا عنه في المدن حتى وجدوه أخيرا ، يركب دراجته وينطلـق يوزع السجائر على العملاء . . وترصدوه حتى تمكنـــوا منـــه . وأعادوه من جديدة إلى الوصية تلك التي قررت أن تملكه من جديد إلى الأبد . وجد الكموني نفسه محاصرا بعد أن كـــان منطلقـــا . وكرجل عاقل استسلم لهذه المرأة الآسرة مرة أخرى . ولما حـــانت فرصة الهرب مرة ثانية فأفلت من الحصن ، سافر في هذه المـــرة بعيدا إلى أبعد بلاد المحروسة ، سافر إلى أسوان . .. هنـــاك لـــن يتسنى لحكمت المستبدة أن تعرف مكانه ولا حتى رجالها ، فكيـــف يفكر أعوانها أنه لجأ إلى مدينة مهجورة لا يرتادها حتى السياح إلا في الشتاء كمشتى . وهناك اشتغل لدي الرجل الطيـــب صـــاحب المتجر الكبير الذي يبيع بالجملة عم حمزة كما كان يدعوه الناس . اصبح موزعا لبضاعته على تلك الحوانيت التي افتتحت مؤقتا عند السد العالي ، ولعلها اختفت بعد أن تم بنـــاؤه . وزف إلـــى ابنـــة الرجل أنيسة ، تلك التي كانت ولودا مثل سنية ، فأنجبت له نصيرا

وأنجبت له زينب . غير أن الكموني كان قد عشق الانطلاق من جديد ، ولكن لم ينس عائلته فاستمر يود أنيسة ، ويود ولديها . ويبدو أن حكمت القوية كانت مستمرة في البحث عنه كانت لا تزال تبحث عن غزالها الشارد ، فتصادف أن رأت في مشهد رائع من مشاهد افتتاح السد العالي الكموني بلحمه وشحمه واقفا يتأمل تفجير السد الترابي المانع للماء من التدفق في جسم السد . ظهر صدفة في التلفزيون ، فأمرت رجالها للقبض على الكموني وإعادته من جديد إلى عش الزوجية ذلك السجن المقيت . وتمكن الرجال من توثيق الكموني ، ودفنه في سيارة متجهة إلى الحصن المنيع في الوجه البحري .

عاد الكموني من جديد إلى حكمت الفاتنة الآسرة التي تمتعه وهو كاره لها . ولا يعرف أن الأموال التي تضع يدها عليها هي أمواله . وأن الحصن الذي تحتمي به ما هو إلا حصنه . وأنه يمكن أن يطلقها ويطردها . وقد دنا الكموني من الخامسة والثلاثين وظل على جهله لأن التفكير في الهرب كان شاغله الشاغل . وعاد الكموني من جديد لإظهار ضعفه حتى تستكين الفاتنة وتأنس إليه وتفكر أنه خضع للأبد . وبدأ يشاركها أعمالها في الحقول المترامية ، وهو يعرف أن الرجال يترصدونه ويراقبونه وإذا حاول أن يفلت فلابد أن يقبضوا عليه . كانت حكمت تكبر الكموني رغم أنها تبدو

فائضة الشباب ، فأخذ ينتظر أن يراها تذوي لكنها لم تكن تـذوي .
كان شبابها غضا يكاد لا يهزم . وأفلت الكموني للمرة الثانية مـن
تلك المرأة التي أسرته . في هذه المرة لم يذهب إلى أسوان إنمـا
ذهب إلى أسيوط . موقع وسط بين القاهرة وأسوان . هنـاك
اختبأ الكموني في نفس المهنة . مهنة مندوب مبيعات . حيث يعـثر
على انطلاقه تزوج الفقيرة البائسة اليتيمة زبيدة ، رغم فقرهـا
وبؤسها كانت كالزبد . ويبدو أن هناك أناسا ينضحون في الفقـر
والبؤس جمالا وحلاوة . وأنجبت له عبد الحميد ورقية وكاملـة .
وعاش معهم أياما تملؤها السعادة . وتمتع بها فقـد كـانت نعـم
الزوجة المطيعة القادرة على تحويل الفسيخ إلى شراب طـهور .
واستمر الكموني في انطلاقه يعمل لدى أحد تجار الجملة ويـوزع
بضائعه في القرى والنجوع القريبة من أسيوط . ويد جاره عمران
الذي كان له ابنا اسمه عامر . نوبي من الذين هاجروا من بـلاد
النوبة لما بدأ السد العالي يفيض عليها من بحيرته . ولاذ بأسـيوط
رغم أن أقرانه عادة ما يلجئون للعيش في الإسكندرية أو القاهرة .
ولم يترك زوجه مع أهلها في أسوان إنما اسكنها معه في شقته فـي
أسيوط بجانب شقة الكموني . كان الكموني يشعر بالخطر يترصده
في كل لحظة من تلك المرأة المتحصنة بأملاكه .. والتي صبغـت
كل شيء فيها بصبغتها . والمتمتعة بخيره وتريد أن تمتلكه . وفعلا

تمكنت منه للمرة الثالثة . إذ أوحى لها إلهامها أن من الممكـــن أن يكون الغزال الشارد مقيما في وسط البلاد ، ولم يكن الوسط غـــير أسيوط ، فبعثت برجالها للبحث عنه وقبضوا عليه وعادوا به .

في هذه المرة كانت الفاتنة تحولـــت إلـــى عجـــوز ، ســـقطت أسنانها ، وخف شعرها ، وتغضن جلدها ، وما زالـــت تـــهوى أن تمتلك قلب الكموني . ورسم خطته بأن يتحـــول مـــن الخضـــوع للمرأة المستبدة إلى إخضاع لها . وواجهها بأنها لص سرقت أمواله وممتلكاته ، ووضعت يدها عليها بغير حق ، وتصرفت فيها علـــى هواها ، وحرمت أبناءه منها ، هي المرأة العاقر التي لا تلد ولـــن تلد ، وأنه يطالبها بكل أمواله وإلا سوف يطالبها بذلك أمام المحاكم ، وسيثبت بالبرهان القاطع أن الأموال ملك له ، و أنها اســـتحلت كونها الوصية عليه واستولت على كـــل الأمـــوال والممتلكـــات . وبهتت المرأة من الرجل الجديد . ولانت حكمت لكنها لم تفرط في الثروة . صارت تحميها من بعيد واستمالت الكموني لينشغل بإدارة الثروة . حتى لا يهرب من جديد . ولم يصدق أعوانها أن الكموني هو صاحب كل هذه الضياع وأنهم يجب أن يأتمروا بأمره . خـلفوا بطش المرأة القادرة لو انحازوا إليه ، ولذلك ســـهلوا للكمونـــي أن يهرب من جديد . تضامنوا معه ضد المرأة . ربما خشوا أن تموت ولا يؤول لهم شيء ويحرمهم الكموني من رزقهم الذي يرزقون به

في ظل المرأة . وقد عاشوا دهرا عالة على المرأة ولا يعرفون لهم مهنة إلا حراستها وتلبية طلباتها . وإذا ما هرب الكموني من جديد ينشغلون في البحث عنه ولا يبقون عاطلين أو يصطنعون البحث عنه ولا يبحثون . أما إذا آل إلى الكموني ذلك العز فقد يسرحهم من خدمته ، فيشردون في الأرض . ولو سهلوا له مهمة الهرب والمطالبة بحقوقه وعاد من جديد إلى الضياع المغتصبة باسم الوصية فقد لا يطردهم ويبقي عليهم كسند له وقف معه وقت الشدة . وإذا لم يسهلوا له الهرب فقد يبقى نافرا منهم ، وإذا ما حلت ساعة حكمت لن يجرئوا على رفع أعينهم في وجهه .وقد يطردهم شر طردا .

وهرب الكموني من المرأة بتسهيل من أعوانها هذه المرة . واشتغل لدى حسنية صاحبة الكازينو والمطعم . وصار يلبي طلبات الزبائن على دراجة . وأفتتنت به حسنية لوقاره وأناقته وحبه للعمل وتزوجته . وأنجبت منه ثلاث بنات هن علا وأميرة وابتهاج . رغم أنه أحب البنات الثلاث لكن حبه للانطلاق شغله عنهن . وكان الانطلاق مصاحبا لإثبات حقوقه . واكتشف أن كل الأموال التي تضع حكمت يدها عليها هي ملكه . واستخرج ما يثبت ذلك . وعاد الكموني إلى المرأة العجوز هذه المرة لتنقلب الأوضاع حيث تحول الحاكم إلى محكوم واصبح المحكوم حاكما .

وتفرغ الكموني لهذا العمل الجديد . وشعر في لحظة من اللحظات أنه ظالم . يعذب المرأة التي متعته . ويؤلمها وهي في أواخر أيامها . وكانت تندم لأن حبها تحول إلى رغبة في التملك . وهي الآن تحبه دون تملك . وتنازلت له عن كل الأموال التي سيطرت عليها رغم أن كل نظمها التي وضعتها لإدارتها كانت سارية المفعول ولم يعدل فيها الكموني شيئا . ورغم أن أعوانها سهلوا له هروبه في المرة الأخيرة غير أن الكموني طردهم . وقد زالت كل كلمة لها عليهم . وبحث الكموني عن أهله القدامى . عائلاته التي كونها في الزمن الغابر . لم يجد أثرا لسنية في بيته القديم . قيل له إنها هجرت الحجرتين لما غاب طويلا . ولم يجد أنيسة في شقته القديمة بأسوان وعرف أنها طلبت التطليق واستجابت المحكمة لها وتعيش في كنف رجل يرعاها ويرعى ولديها ولكن أين يسكنون ؟ .. لم يعرف . ووجد أن زبيدة ماتت ولم يعثر على النوبي الطيب ليدله عن مكان أولاده منها . أما حسنية فلم يذهب إليها لأنها كانت من عينة حكمت . ولو أن حكمت كانت تستبد بثروته إلا أن حسنية كانت تستبد بثروتها .

لقد قرر الكموني أن يجمع أولاده وبناته في حصنه المنيع وسوف يرسل إليهم دعوات لذلك عما قريب . "

صار أحمد متأكدا أن كاتب الرسالة ما هو إلا نصـــرت أميـــن الكموني . فمن يعرف أسماء سنية وأنيسة وزبيدة وحسنية . إنه لم يذكرهم في قصته التي نشرها في الصحيفة . بل لم يشر إلى أسماء أخوته وأخواته من أبيه إنما كان يرمز لهم بالحروف الأولى حتـــى هو أحمد أمين أشار إلى نفسه على أنه أ . ن . أ . ك لـــم يذكـــر فقط إلا اسم نصرت أمين الكموني . فكيف يعرف كاتب الرســـالة هذه الأسماء جميعها والقصة كاملة ويوقع بصديق الكمونـــي . وهو لم يذكر أين يقيم الكموني ومتى يرسل دعواتـــه إلـــى أولاده وبناته ؟ .. وهل سيرسل الدعوة لكل واحد منهم على حـــدة فـــي مواعيد مختلفة أم سيجمعهم كلهم في يوم واحد .

لم ينشر أحمد الكموني تلك الرسالة على اعتبار أنها تعليق على قصته مثلما نشر من قبل التعليقات الأخرى واعتبر الرسالة ســـرا من الأسرار العائلية التي لا يجوز نشرها أو إذاعتها .

الرياض في ١٩ / ٢ / ٢٠٠١